رواية

فائزة بجائزة الإمارات للرواية

ماذا لو؟

سارة العبادي

برنامج الروائي

5683

ماذا لو...؟

رواية

أجمل قصص الحب..

وأعظم روايات الكفاح والتضحية..

.. ستجدونها الأقرب إليكم..

سارة العبادي

تأليف: سارة العبادي

ISBN978-0-9975518-4-6

الطبعة الأولى 2016

جميع الحقوق محفوظة

جائزة الإمارات للرواية
EMIRATES NOVEL AWARD
powered by twofour54 بتنظيم

كلمة

الحفر في الأرض البكر، وزرع الغراس الطيبة؛ ليس مسألة قليلة، بل هي مهمة جليلة، لأن الأصدق بالعطاء والنماء هم الشباب.

هذا ما جاء من أجله «برنامج الروائي»، حيث جرى فتح الأبواب على مصاريعها أمام الأجيال الجديدة؛ للخوض في غمار التجربة الإبداعية الأولى، باعتبار أن الرواية هي خميرة الآداب، وأن الآداب - ومعها الفنون - من أهم مكونات الهُوية الثقافية للأمم الحية، وفي الوقت عينه هي المِهاد الأكثر صلابة للنهضة الحضارية.

ربما نتعثر هنا أو هناك، وربما لا تأتي بعض الغراس بأكلها كما نشتهي، إلا أن الرهان على عقول الشباب في صناعة الدهشة والمسرة والجمال ما خاب يوماً. هكذا تقول التجارب الإنسانية، وهذا ما يُصر عليه «برنامج الروائي»، الذي أزهرت وأثمرت تجربته الأولى أعمالاً روائية، شكلت إضافة نوعية للسرديات الإنسانية.

برنامج الروائي، الدورة الثانية

جائزة الإمارات للرواية

الإهداء

إلى من ارتميتُ بين أحضانها طفلة..
وتشَبثت بيديها خوفًا من أن تتركني في أول يوم لي في المدرسة..
إلى من عانت من عنادي في سنوات مراهقتي ولَملَمت شتاتي لِتضعني على الطريق الصحيح..
إلى من كانت لي كالجدار الصّلب لتقويني وتثبتني حتى تخرجتُ جامعية ناجحة..
إلى صانعتي.. صديقتي ومعلمتي.. إلى قائدتي..
إلى أمي..

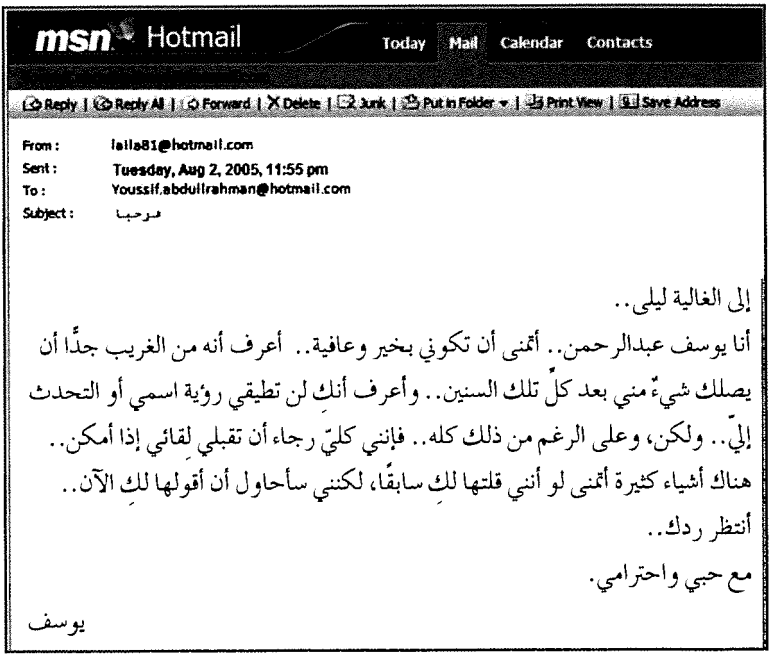
msn Hotmail Today Mail Calendar Contacts

Reply | Reply All | Forward | Delete | Junk | Put in Folder | Print View | Save Address

From : laila81@hotmail.com
Sent : Tuesday, Aug 2, 2005, 11:55 pm
To : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Subject : مرحبا

إلى الغالية ليلى..

أنا يوسف عبدالرحمن.. أتمنى أن تكوني بخير وعافية.. أعرف أنه من الغريب جدًّا أن يصلك شيءٌ مني بعد كلّ تلك السنين.. وأعرف أنكِ لن تطيقي رؤية اسمي أو التحدث إليّ.. ولكن، وعلى الرغم من ذلك كله.. فإنني كليّ رجاء أن تقبلي لِقائي إذا أمكن.. هناك أشياء كثيرة أتمنى لو أنني قلتها لكِ سابقًا، لكنني سأحاول أن أقولها لكِ الآن..

أنتظر ردك..

مع حبي واحترامي.

يوسف

أشعر وكأنّ جدران الغرفة بدأت بالدوران من حولي.. إنّ الكلمات المُتراصّة داخل شاشة الحاسوب أمامي، تبدو لي وكأنها بلغة لا أفهمها.. أشعر بحرارة في جسمي.. وضرباتُ قلبي تزداد.. أُحاول أنْ أفتح عينيّ أكثر لأتأكّد من أنني أرى ما أظن أنني أراه.. لوهلة شعرت بأنّ صدري ضيق جدًا، وقلبي لم يعد يسعه في داخله، بدأت آخذ نفسًا عميقًا.. شهيقًا.. زفيرًا.. شهيقًا.. زفيرًا..

هل ما أقرؤه حقيقي؟! هل هذه الرسالة من يوسف؟! ربما أحدهم يمزح معي.. لكنّ عنوان بريده هو نفسه؛ اسمه الذي لن أخطئه أبدًا.. يوسف الـ... نعم هذا هو.. كم مضى من الوقت منذ آخر اتصال منه: خمسة أعوام أو ستة.. نعم؛ أظن أنها ستة أعوام.. ربما أكثر.. يكتب لي بعد كلّ هذا الصمت.. آآآآآه كدت أنسى شكله.. لِمَ يريد أنْ يلتقيني؟! ما عساه يريد مني؟! لا أُصدق أنه يكتب لي..

بدأ رأسي يؤلمني.. يجب أنْ أذهب إلى النوم.. ولكن كيف لي أنْ أنام بعد الذي قرأته.. رسالة من يوسف.. إنها المفاجأة المحزنة المفرحة في آن.. كم تغيرت حياتي منذ تركت يوسف.. لم يكن

الذي بيننا شيئًا عاديًّا.. أنا متأكدة من أنني لن أستطيع النوم هذه الليلة.. بقيت أنظر إلى الحاسوب وأنا مستلقية على السرير.. أنظر في كلماته.. «**تقبلين لقائي**».. هل يعني بهذا أنه يعرف أين أنا؟! هل أخبره أحد عن مكان سكني؟! ربما اتّصل بخالي وهو الذي دلّه على مكاني أو بريدي.. لا يمكن أنْ يفعل خالي ذلك من دون أنْ يخبرني.. ربما هذا ليس يوسف.. ربما تشابه أسماء.. ربما قرر أحدهم أنْ يمزح معي مزحة ثقيلة.. لست أدري.. آآآآه كيف أتأكد؟! أشعر برغبة في البكاء.. «**هناك أشياء كثيرة أتمنى لو أنني قلتها لك سابقًا**».. هل يظن أنّ الأمر سيكون بهذه السهولة؟! لا أعرفه ساذجًا.. من المؤكد أنه يعرف ماذا حصل لي بعدما قرر أنْ يتركني.. أنا متأكدة من أنه علم كيف تغيرت حياتي.. كيف له أنْ يكتب لي بعد كلّ هذه السنوات بهذا البرود..؟!

لقد تركت حَيِّنا الذي عشت فيه طفولتي.. تركت أهلي وأصدقائي.. أخذت ابنتي ورحلت.. تاركةً آلامي.. ذكرياتي.. الحزينة منها والسعيدة.. رحلت وتركت كلّ ما يذكرني بتلك المرحلة من حياتي.. لم أتحمَّل ما حدث.. كيف سُلبت سعادتي منّي بغير وجه حق؟! كيف كانت حياتي كالسيارة التي تسوقها قرارات أبي وآراء أمي وأنا التي كنت مجرد راكب في المقعد الخلفي، يذهبون بي من محطة إلى أخرى، من دون أي مجال لي لاتخاذ قرار أو إبداء رأي.. والآن يكتب لي يوسف ليعيدني إلى حيث كنت.. ليعيدني فتاة الست عشرة السنة.. التي كان حلمها أنْ تكون مع الإنسان الوحيد الذي أحبته..

الإنسان الذي كبرت وهو أمامها فلم ترَ غيره؟!

يقولون دائمًا إنّ الحبّ الأول للمرأة لن يفوقه حب.. وهذا هو الذي أستطيع أنا أنْ أقوله.. كان يوسف بالنسبة إليّ حبي الأول وأظن أنه الأخير؛ فأنا لا أنوي أنْ أخوض تجربة الحب ثانية.. وها أنا الآن على مشارف عقدي الثالث.. مطلّقة.. لم أرتبط عاطفيًّا بأي رجل آخر بعد ما حدث، بقيت وحدي ووهبت نفسي لأُربي ابنتي التي استحوذت على حبي واهتمامي وكلّ ما أملك.. مريم بالنسبة إليّ كلّ شيء.. فهي تأتي الأولى دائمًا في أي قرار أتخذه.. لقد كان وجودها في حياتي السبب الرئيسي الذي دفعني لأترك بيت أهلي بعد ما حصل.. حين حملتها بين يديّ وضممتها إلى صدري أوّل مرّة.. عاهدت نفسي على أنني سأفعل المستحيل لتعيش مريم حياة غير التي عشتها.. سأبذل قصارى جهدي لأدعها تعيش كلّ مراحل حياتها وتستمتع بكلّ مرحلة بكلّ معانيها.. ولحظاتها.. وحزنها وفرحها.. فالحياة قصيرة وعلى الإنسان ألا يستعجل فيها؛ لأنّ كلّ شيء في أوانه جميل، ولكنْ لو تسرعت فإن الأشياء واللحظات تفقد معانيها الجميلة ونتمنى أنْ تنتهي سريعًا بعدما كنّا لا نستطيع انتظارها..

«ماماااا.. ماماااا..» أشعر بجسم فوق جسمي.. صفعات من يد صغيرة على وجهي..

حاولت فتح عينَيّ لكنّ ضوء الشمس لم يعطِني مجالًا.. وضعت ذراعَيّ على وجهي لأحجب الضوء قليلًا.. وتفوهت بنقنقة الأطفال

الذين لا يريدون النهوض للذهاب إلى المدرسة.. فتحت عينَيّ بصعوبة لأرى وجه ابنتي يبعد سنتيمترات عن وجهي.. وشعرها المنفوش يكاد يغطي ملامح وجهها كالنافورة في كلّ الاتجاهات.. بدأت بالقفز فوق بطني وصدري..«إنه وقت المدرسة.. هاتفك يقول ذلك.. إلى المدرسة.. مااماااا».

هاتفي يقول ذلك.. نعم؛ المنبه المزعج الذي لا يصمت.. يجب أنْ أُغيّر هذه الرنة التعسة المزعجة.. لكنها مفيدة في مثل هذا الظرف فهي تغني «حان وقت المدرسة.. حان وقت النهوض» فتوقظ مريم لتوقظني.. مَن غيري يعتمد على طفلة الخمس سنوات لتوقظها؟!

ما كدت أتفوّه: «حسنًا؛ سأنهض.. الآن»

«هياا نلبس المريول.. انهضي أمي..»

«ادخلي الحمام وسألحق بكِ..».

بقيت مستلقية على السرير.. لم أعرف متى غلبني النوم البارحة، لا بدّ من أنه كان في ساعة متأخرة، لأنني لم أشعر بأنني نمت أساسًا.. حين نظرت إلى حاسوبي على سريري أغمضت عينيّ وتذكرت ما قرأت البارحة.. رسالة يوسف..

شعرت كأنني عدت طفلة ذات عشر سنوات، في غرفتي القديمة في منزل أبي، في حيِّنا.. مستلقية على سريري وأنظر إلى الأعلى، إلى سرير أختي سميرة من فوقي.. لم أكن أستلقي لأنام.. ولكنْ

ما من مكانٍ آخر أذهب إليه إذا كان خالي وأصدقاؤه . أحدهم يوسف . ومعهم أبي في مجلسنا، يجلسون أمام شاشة التلفاز لمشاهدة إحدى المباريات، كنت أستطيع أنْ أسمع أصواتهم تعلو كلّما صرخ المعلق مناديًا "غووووول"..

كان خالي يكبرني بعشرة أعوام، انتقل ليعيش في بيتنا بعدما توفّي جدي وجدتي فلم يبقَ له غير أمي لترعاه في هذه الدنيا.. كان يوسف صديقه المقرب.. توفيت والدته هو الآخر وهو في سن صغيرة فلم يعرف حضن الأم طويلًا حتى انتُزع منه، ثمّ تزوج والده امرأة أخرى علّها تكون أمًّا بديلة له، لكنها كانت كلّ شيء إلا أنْ تكون أي شيء قريب من الأم..كانت قاسية القلب، جلفة المشاعر، تُكنّ ليوسف كلّ الكراهية من دون أي سبب مقنع.. فذاق يوسف معها المرّ بكلّ نكهاته طوال نشأته طفلًا، ثمّ مراهقًا، ثمّ شابًا.. كنت أظن أنّ قصة سندريلا فقط تنطبق على قصص الفتيات.. ولكنْ حين سمعت قصص يوسف مع زوجة أبيه، عرفت أنه من الممكن أنْ تكون سندريلا صبيًّا.. عانى مع زوجة أبيه ما لم يعانه أحد، كانت تُخرجه بعد منتصف الليل ليحضر لها شيئًا تافهًا لا حاجة لها به.. أو تطلب منه أنْ يأخذها إلى أماكن بعيدة بمجرد أنْ تعرف أنّ لديه امتحانًا أو عملًا يريد أنْ ينهيه.. بكلامها المعسول، وخبثها الذي تتقنه كمهنة، تملك والد يوسف، وتقنعه بأنّ كلّ ما تفعله في مصلحة يوسف، وأنها تربيه بالضغط عليه، فيقتنع الوالد ويضيع الابن بين يدي

الزوجة.. حتى استطاع وبأعجوبة أنْ يقتلع نفسه من منزله ليشق طريقه بعيدًا منها ومن والده المستسلم، فوجد عملًا بدأ به حياته ووفر له مسكنًا مع مجموعة من الشبان العازبين..

و بعد أن تعرَّف يوسف على خالي.. وأصبحا صديقين مقربين.. وجد في بيتنا حياة الأسرة التي افتقدها طوال حياته، الأم التي تبذل كلّ جهدها لتنال وجبة الطعام رضى كل فرد فيها.. الأب الذي يفعل المستحيل ليطور نفسه وعمله على الرغم من تعليمه المتواضع وإمكاناته المحدودة؛ ليضمن لعائلته حياة أفضل.. والأبناء متفاهمون مطيعون وكلّ الطاعة للوالدين.. هكذا كانت عائلتنا.. وهذا ما كان يجذب يوسف لقضاء معظم وقته في بيتنا، مع أخي، مع خالي وأمي وأبي..

كان مُرحَّبًا به من جميع أفراد العائلة وخصوصًا أمي؛ فهو صديق أخيها المقرَّب، والذي تراه السبب في صلاح خالي وتفوُّقه الدراسي.. أبي الآخر كان يقضي مع يوسف أوقاتًا طويلةً؛ فليوسف التأثير الإيجابي على الكبار؛ يستطيع مجالستهم، فهم حواراتهم، والعمل معهم بكلّ سلاسة.

كنّا نعيش في حي صغير يخلو من مظاهر التطور العمراني؛ فأعلى منزل أو مبنى فيه لا يزيد على طابقين، لكنه كان مليئًا بالناس الطيبين الذين كنّا نشعر بأننا عائلة واحدة؛ فكان الفرح واحدًا، والحزن واحدًا، والمصيبة واحدة، يعرف جميع أهل الحي إذا أصاب أحد أفرادهم مكروه، يحاول كلّ فرد فيهم التدخل

بالحلول والنصائح والمواساة.. حتى وإن كانت نصائحه غير مرغوبٍ فيها ومواساته تُتعِب أكثر من أنها تُساعد..

على الرغم من صغر سن يوسف؛ لم يكمل العشرين من العمر، فإنه كان فطنًا، سريع الملاحظة، قوي البديهة، سلس الحديث، كان يفهم في كلّ شيء؛ في الميكانيك، في الكهرباء، في البناء، لهذا كان يد أمي المساعدة في مختلف أعمال البيت، ومستشار أبي الأوّل في باقي الأعمال.

كنت في الثانية عشرة من عمري حينها، ولكوني أكبر إخوتي الثلاثة: جابر في الحادية عشرة، سميرة ست سنوات، والصغرى ريم ذات السنتين، كان يقع عليّ كثير من مسؤوليات المنزل من التنظيف ومساعدة أمي، كان من أكبر كوابيسي أنْ يصرّ أبي على أنْ يبقى يوسف ليتناول طعام الغداء أو العشاء في منزلنا، هذا يعني أنّ مزيدًا من الشباب الفوضويين سيقضون وقتهم في مجلسنا الذي تعبت في ترتيبه، وسأضطر لتحضير مزيد من الطعام لهم، ثمّ التنظيف بعدما يرحلوا إلى منازلهم، ولا يكون هذا قبل منتصف الليل.. وخصوصًا في الإجازات.. فكان اسم يوسف في صغري يعني لي أنّ هناك مزيدًا من أعمال المنزل التي يجب أنْ أقوم بها، حتى إنني صرخت في وجهه عدة مرّات وطلبت منه ألا يعود إلى منزلنا جارًا معه بقية (الشلّة) مرّة أخرى.. اكتفى هو بالضحك في وجهي والتربيت على رأسي، في حين أن خالي وأبي أعطياني النظرة التي أفهم منها أنني

سأُعاقب على ما قلت.. يجب عليهما ألا يلوماننى على ضيقي؛ فقد كان بيتنا المتواضع يتكوّن من غرفتين: واحدة لي ولإخوتي والأخرى لأمي وأبي، يفصلهما ممر ضيق يقع في آخره المطبخ وإلى جانبه المجلس، وفي المجلس يوجد التلفاز الوحيد الذي نملكه، فإذا احتل الرجال مجلسنا فهذا يعني أننا سنبقى أنا وإخوتي سجناء في غرفة النوم؛ ما يعني أنه يجب علينا النوم في نهاية المطاف..

«ماااا ماااااااااا» سمعت صرخة مريم المملوءة بفقاقيع معجون الأسنان، وكالإعصار نهضت من سريري كالمجنونة.. لا أُريد أنْ أتأخر مرّة أخرى عن عملي؛ فقد استنزفت كلّ الأعذار في هذا الشهر: تعطلت سيارتي، الشارع كان مزدحمًا بسبب أعمال الطرق، ابنتي مريضة واضطررت للجلوس معها.. و.. و.. و.. يجب ألا أتأخر اليوم.. أخذت أُلبس مريم وكأنني أُلبس دمية، بسرعة خاطفة، أكملت وإياها بقية ملابسها ونحن نركض نحو السيارة، وضعت كلّ ما أملك من مكياج.. ووضعت ساعتي وهاتفي.. ركضت إلى المطبخ ومريم المسكينة ذات الشعر المنفوش تركض خلفي، متى ستستيقظ هذه الطفلة كبقية الأطفال وستتناول فطورها في المنزل بهدوء وليس في الطريق إلى السيارة.. من دون الحاجة إلى الركض.. قدت السيارة بسرعة شديدة ومعي مريم.. ونحن في الطريق وفي الوقت الذي نقضيه في انتظار الإشارات المرورية

لتصبح خضراء، أُمشط شعرها وتتناول هي فطيرتها ثمّ تغلق بقية أزرار قميصها.. وبمجرد أنْ تصبح الإشارة خضراء، تصبح كالراكب في قطار الموت؛ وجهها متشنج وتنزل رأسها كلما دُست على الفرامل بشدة حتى لا نصطَدم بالسيارة التي أمامنا.. أوصلتها إلى الروضة وانطلقت بسرعة أكبر إلى عملي..

وأخيرًا فعلتها.. وصلت إلى مكتبي قبل أنْ يصل مديري.. مكاتبنا في هذه الشركة كالمكعبات الصغيرة؛ كلّ مكتب إلى جانب الآخر، فإذا همست أو تكلمت في الهاتف، فهناك فرصة ١٪ أنّ مَن يجلس إلى جانبي لا يمكنه سماعي.. شركة الاتصالات التي أعمل فيها كانت أفضل ما توصلت إليه في مسيرتي العملية؛ فقد عملت في مختلف أنواع الأعمال البسيطة لكي أصل إلى عمل مكتبي كهذا.. وما إنْ جلست على الكرسي حتى رأيته يدخل: الأستاذ جمال.. كرشه المنتفخ يدخل قبل وجهه.. وطبعًا بمجرد أنْ يدخل وقبل أنْ يستقر في مكتبه، يقوم بجولة تفتيشية على المكاتب ليرى مَن جاء في الوقت المحدد ومن تأخر.. وما إنْ وصل إلى مكتبي حتى نظر إليّ نظرة استهزائية وقال: «ههه.. ليلى لم تتأخري اليوم.. كنت أظن أنكِ كالمدراء تأتين إلى الدوام متى يحلو لكِ».

نظرت إليه نظرة جامدة.. من دون أي تعابير.. من الصعب جدًّا أنْ ترد على الأستاذ جمال حين يعلّق، فإنْ رددت عليه أو تكلمت أو حتى ابتسمت، فسيكون ضدك بطريقة أو بأخرى، لهذا فإنْ أردت أنْ تعود إلى بيتك بأمان وفي الوقت المحدد، ابقَ صامتًا ودَعْه يقول

كلّ ما يريد قوله..

«هل أنتِ مريضة؟».

حين أدركت أنّ هذا سؤال، توترت وقلت:

«أنا..؟ لا..».

وكنت أتلفت حولي لأرى إنْ كان أحد ينظر إليّ.. نعم؛ كان كلّ مَن في القسم واقفًا ينظر إليّ، فقد كنت ضحية الأستاذ جمال اليوم..

«إذًا؛ لماذا تبدين هكذا؟! اذهبي وافعلي شيئًا بوجهكِ».

وضعت يديّ على وجهي، فقد فهمت أنني لم أضع أي مكياج اليوم.. لكن هذا ليس عدلًا، لا أبدو بشعة أو سيئة لهذه الدرجة من دون أي مكياج، رأيت زملائي كلّ منهم يحاول أنْ ينظر بعيدًا مني حتى يقل الإحراج الذي وضعني فيه الأستاذ جمال.. شعرت بأنّ وجهي يحترق من الخجل، وما إنْ أنهى دورته الاستكشافية حتى عاد كلّ منّا ليختبئ في مكتبه وكأنه كان كتلة من الجليد وذابت بمجرد أنّ الأستاذ جمال دخل مكتبه وأغلق بابه.

الأستاذ جمال؛ مديري في العمل، كانت إطراءاته على شكلي وطريقة كلامي أكثر من إطرائه على عملي، تحملته كثيرًا، وتعمدت أنْ ألعب معه لعبة الجاهلة بنياته، إلا إنه اعترف لي ذات يوم حين طلب مقابلتي في مكتبه؛ ذهبت إليه وأنا أحمل شكوكي معي، ولم أفصح عنها.. فنظراته وتنهداته لم تكن مريحة منذ البداية.. جلس إلى مكتبه وجلست على الكرسي أمامه، فَرَد كتفيه على

كرسيه كالطاووس النافش ريشه، بدأ يسألني عن مريم، كيف نعيش أنا وهي من دون رجل، ما نظرة المجتمع إلى المرأة الجميلة والمطلقة التي تعيش وحدها خصوصًا.. و.. و.. و.. بقيت ساكتة؛ لم أجبه، وكأن جزءًا منّي يريد أن ينقض عليه ويفترسه، وجزءًا آخر يحفر حفرة في مكاني وأختبئ فيها.. تضارب الجزآن في داخلي وأنا أسمع كلمات الأستاذ جمال وأراقب نظراته التي جعلتني أشعر كأنني لا شيء.. حتى قالها: هل تتزوجينني؟

فتحت عينيّ مندهشةً.. صحيح أنّ طلبه لم يكن غريبًا، لكنّ سماعه بصوت عالٍ أمامي وفي مكان عملنا يطلب هذا الطلب، لم أستطع إلا أنْ أفاجأ.. لم أفكر في الرد، لساني سبقني وتكلم قبل أنْ يستشير عقلي: «لا».

تجمّد وجه جمال وكأنه لم يكن يتوقع منّي هذا الرد بتاتًا، ظلّ صامتًا ينظر إليّ.. وحل الهدوء في المكتب.. وبدأ صوت جهاز التكييف يتعالى في آذاننا أكثر فأكثر.. وبعد دقائق من الصمت.. قررت أنْ أتكلم: «أنت إنسان جيد.. لكنك متزوج ولديك عائلة.. لماذا تريد أنْ تهدم عائلتك وتجرح أولادك بهذه الطريقة؟!».

ذاب الثلج عن وجه جمال.. وعاد لونه طبيعيًا: «مَن قال لكِ بأنهم سيُجرحون؟! أولادي لن ينقصهم شيء وأنا إنسان مقتدر وأستطيع أنْ أفتح بدلًا من البيت أربعة بيوت، وهذا ما حلّله الله لي..».

«ربما امرأة غيري يمكن أنْ ترى عرضك هذا مغريًا.. ولكنْ لست أنا.. اعذرني؛ يجب أنْ أذهب، لديّ عمل الآن».

«أنا رئيسك في العمل.. ولم أنهِ كلامي بعد.. «.

«أنا متأسفة يا أستاذ جمال، لم يعد هناك أي شيء أقوله في هذا الموضوع، وأرجوك لا تفتحه مرّة أخرى، لا تحرجني..».

«إذا كان هذا ردّك لكِ ما شئتِ.. ولكنّ تحملي نتيجة قرارك هذا.. غريب أمركِ يا امرأة.. بدلًا من أنّ تشكريني لأنني أريد أنّ أستر عليكِ تردين علي بهذه الطريقة الوقحة..».

«ولكنني لم أرد بأي طريقة..».

«لا أريد أنّ أسمع مزيدًا.. اذهبي إلى مكتبكِ..».

ومنذ ذلك اليوم والأستاذ جمال يعاملني كالحشرة في الشركة؛ لم يطردني لأنه لم يجد خطأ يحتسبه عليّ، بل نقلني إلى العمل في الأرشيف، وأصبح يتلذذ ويستمتع بمراكمة العمل على مكتبي حتى ينهكني، أعمال هي في الأساس لا يحتاجها أنّ تنجز.

لا يوافق على إجازاتي ولا طلباتي.. يبحث عن أي سبب ليحرجني أمام الموظفين، وأحاول بكلّ ما أقدر أنّ أتحمل كيلا أخسر وظيفتي.. أحاول كلّ يوم أنّ أجد وظيفة أخرى أو في قسم آخر، لكنّ الأمر ليس سهلًا على مَن يحمل شهادة الثانوية العامة ومن دون أي خبرة تحسب له.

اختبأت داخل مكتبي وأخرجت مساحيقي من حقيبة يدي.. وبدأت أدهن وجهي حتى لا يصفعني أحدهم بتعليق سخيف آخر؛ فقد أخذت كفايتي من الإحراج يومًا واحدًا.. ولم أبدأ بعد حتى شعرت

بانزلاق عجلات الكرسي من خلفي ووجه زينة صديقتي يلتصق برقبتي:

«هل أنتِ بخير؟»، قالت زينة لتطمئن إليّ.

«يجب أنْ يقف عند حده.. أقسم لكِ إنني كنت أريد أنْ ألكمه على وجهه الذي يشبه رغيف الخبز، لكن يدي لم تكن تستجيب لنداءاتي».

«نعم؛ لأنّ يدك تريد إبقاء وظيفتها.. أكثر منكِ على ما يبدو».

وبدأت أضع قلم العيون.. «لم يكن صباحًا عاديًّا من الأساس».

«لماذا..؟! نعم؛ إنّ المدير على حق، شكلكِ اليوم كالتي سُحبت من السرير ووُضعت على المكتب.. ماذا حصل؟!».

نظرت إليها نظرة حاقدة، وقلت: «استيقظت من النوم متأخرةً.. هل هذا جريمة؟! يحصل في أفضل العائلات».

«آه يا ليلى.. أرجوكِ استخدمي منبهًا.. أرجوكِ».

«لم أسمعه.. فقد.. نمت متأخرةً ليلة البارحة».

وبنبرة استهزائية قالت: «لماذا؟! هل بقيتِ تعملين طوال الليل على مشروع لروضة مريم حتى تستطيع أنْ تتفاخر أمام أصدقائها.. أم.. أم قررتِ أنْ تتطوعي لصنع الطعام لجميع طلاب فصل الروضة هديةً من مريم. أم..؟!».

نظرت إلى زينة وأحد حاجبي ارتفع إلى الأعلى، وبدأت أضرب بأصابعي على الطاولة ولم أنطق بكلمة.

«نعم.. نعم.. ولن تخيفيني بنظراتكِ.. هذا رأيي منذ عرفتكِ..أنتِ تحاولين أكثر من اللازم حتى تحظى مريم بحياة مدرسية سعيدة.. لا أفهم لماذا..؟!».

«حسنًا؛ إذا كان هذا رأيكِ فاحتفظي به لنفسكِ.. فأنا لن أخبركِ ما حصل البارحة ولِمَ بقيت مستيقظة طوال الليل».

وفي لحظة، تحولت زينة اللئيمة صاحبة الانتقادات اللاذعة، إلى حمل ودود فقط لأنها تريد أنْ تعرف ما حدث معي.. فاستمتعت بملاعبتها وعدم إخبارها؛ لأنني متأكدة من أنها ستموت إنْ لم أتكلم.

وبعدما سمعت منها كلّ كلمات الاعتذار والترجي، قررت أنْ أخبرها، وبصوت منخفض أنزلت رأسي إلى الأسفل وهمست:

«تسلّمت رسالة من يوسف».

«يوسف مَن..؟!».

بكلّ غباء وعدم تفكير سألت زينة:

«أعرف يوسف واحدًا في حياتي يا زينة.. يوسف».

«يووووووووووسف».. وبأعلى صوت ومن دون أي حساب أننا في مكتب مليء بالموظفين، صرخت زينة، حتى إنَّ عامل النظافة المسكين الذي يدعى يوسف، التفت إلينا بكلّ استغراب ظنًّا منه أننا نناديه.

صرخت بهمس: «زينة.. هل جننتِ..؟! أخفضي صوتكِ».

«يووسف.. يوسف حب حياتكِ..».

«.. امممم.. تستطيعين أنْ تصفيه هكذا.. ولكن..».

«يوسف!!!! هل أنتِ متأكدة؟!!».

اقتربت منّي زينة أكثر وقالت: «هيا!!! أخبريني بالتفاصيل.. ماذا كتب؟!.. ماذا قال؟!.. أخبريني بكلِّ شيء».

وقبل أنْ أفتح فمي وأنطق الكلمة الأولى.. قفزت زينة من مكانها قائلةً: «انتظري قليلًا؛ لا تبدئي..»، وانزلقت إلى مكتبها وأحضرت فنجان قهوتها وعادت لتجلس إلى جانبي..

«هيا أكملي..» وكأنَّ زينة جلست أمام شاشة تلفاز لمشاهدة فيلم أو مسلسل تلفزيوني.. لم أكن أريد أنْ أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام؛ فالعودة إلى الماضي مؤلمة أحيانًا، وبالذات حين يكون ما حدث في الماضي سببًا بتشكيل حياتكِ الآن.. ترى أنّ ما حلمت به وخططت له يؤخذ منك من دون أي وجه حق، حتى من دون معرفة السبب؛ فتضطر للمضيّ قُدُمًا لتبدأ من نقطة الصفر وأحيانًا تحت الصفر.

كبرنا وكبر يوسف أمامي.. دخلتُ سن المراهقة، وبدأت الأحاسيس الغريبة في داخلي تتكون وتكبر، الخجل غير المفسَّر من رُؤية أي شاب، الانسجام مع أي أغنية عاطفية والسرحان الدائم كلما شاهدت فيلمًا أو قرأت قصة حب.. أنسج الخيالات في عقلي وأرى وجه يوسف أمامي بدلًا من وجه بطل الفيلم، أتخيله

يرمقني بتلك النظرات التي أرى أبطال الأفلام ينظرون بها إلى البطلات أمامهم، وأتخيل نفسي أشعر بتلك الأحاسيس.. أسمع كلمات الأغاني تصف فيها الفتاة شعورها بالخجل، والذوبان، بالرعشة كلما كلّمها حبيبها، وكنت أعيش تلك الأحاسيس وحدي، وأجسِّد شخصًا يسبب لي تلك الأحاسيس ولا أرى غريبًا أمامي إلا يوسف.

عائلتنا كانت العائلة الشرقية المعتادة؛ إذ يجب على الفتاة ألا تخرج وحدها أو برفقة صديقاتها، وما غير ذلك من قوانين.. فكنت أقضي معظم وقتي مع أمي أساعدها في أعمال المطبخ والمنزل، وأحاول أنْ أستمتع بذلك.. فكان عالمي صغيرًا جدًّا؛ تحدّه جدران بيتنا من أربع جهات، ولكنْ كانت لي نوافذ صنعتها لنفسي، أخرج منها من هذا العالم لتحملني إلى عوالم أخرى صنعتها أنا.. أخرج إليها بين الحين والآخر لأعيش فيها مع نفسي، كانت نوافذي سهلة الفتح؛ تفتح كلما سمعت أغنية فتأخذني الكلمات بعيدًا معها إلى عالم الحب، والرومانسية، والحياة المثالية مع مَن أحبّ.

كنت أحب بين الحين والآخر أنْ أسترق النظر من باب مجلسنا لأرى يوسف وهو يجلس في الداخل مع أبي.. بعدما كنت أكره وجوده في منزلنا، أحببته من دون أنْ أفهم السبب.. حين كانت أمي تطلب أنْ أجهز لهما العصير أو العشاء، كنت أحب أنْ أفعل ذلك، وأتفنن في استخدام أجمل الأطباق لهما، كنت في قرارة

نفسي أعلم أنَّ يوسف لن ينتبه إلى أنّ الأطباق جديدة أو أنّ الكؤوس تتناسب مع لون الأطباق، لكنني كنت في قمة سعادتي وأنا أفعل ذلك، وأعلم أنه هو مَن سيأكل أو سيشرب، لعلّ أبي يقول شيئًا عني أو يمدحني أمامه لحسن تنظيمي.. فأكبر في عينيه.. وربما يعجب بي.. كنت أتعمد أنْ أبقى داخل المطبخ في الوقت الذي أعرف أنهما سيخرجان من بابه؛ لأسترق النظر إليه، ويرمقني بنظرة بعيدة، أو يرمي عليّ كلمة "مع السلامة يا ليلى".

كنت أتجمد في مكاني حين يخاطبني، هو يراني كالطفلة، وأنا أراه كالفارس المغوار الذي يحبه جميعنا.. لم أفهم مشاعري نحوه في ذلك العمر، كنت متحيِّزة بين إعجاب، استلطاف، اهتمام.. ومشاعر أخرى تملأ قلبي الصغير الذي كبر به وباسمه..

تغيرت نظرتي إليه، وأصبحت أميل أكثر إلى رؤيته بعدما كان وجوده أحد كوابيسي.. بدأت أنجذب إلى وسامته.. كان جميل الوجه.. طويل القامة.. عريض المنكبين.. خلافًا لجميع شباب قريتنا.. كان أنيقًا جدًّا، حتى إنه كان حين يدخل منزلنا، كانت رائحة عطره تملأ كلَّ أنحاء المنزل وتبقى في زوايا منزلنا وكأنها تريد أنْ تهوِّن عليَّ الحزن الذي أشعر به حين يرحل ليعود إلى منزله.. فتبقى الرائحة تواسيني حتى يعود في اليوم التالي.

ازدادت أناقة يوسف حين بدأ عمله في المصرف، فبعد تخرُّجه في الثانوية العامة، التحق بمعهد تعلم لغة إنجليزية، فتطورت

لغته بسرعة فائقة.. وبعدها حصل على فرصة عمل جيدة في المصرف، تطور في عمله بسرعة، حتى أصبح من أهم الموظفين هناك..كلّما كنت أسمع عن إنجاز آخر له.. كان إعجابي به يزداد.. كنت أراه أملي الوحيد في ركوب البساط السحري والطيران بعيدًا إلى عالم أجمل.. بيت أكبر.

كان قلبي يدق بسرعة وأشعر بحرارة في خدّيّ بمجرد أنْ أسمع اسمه.. لم أكن أعرف ما تعنيه تلك المشاعر التي كانت ستظل مشاعر مراهقة عادية لو لم أكن أسمع تلك الجُمل التي تعشقها النساء حين يرين أي فتاة: "عقبال ما تفرحين بليلى يا أم جابر"، "قريبًا سيأتي ابن الحلال إنْ شاء الله"، "ليلى كبرت وصارت عروسًا"، "ليلى جميلة يا أم جابر؛ يجب أنْ تزوجيها لتحميها".

على الرغم من صغر سنّي ولم أُنهِ دراستي الثانوية بعد، لكن هكذا كانت النساء، كانت نظرة المجتمع في تلك الأيام إلى أي فتاة بتلك الطريقة؛ فكانت الفرحة الأولى والأخيرة في الزواج والإنجاب وليس في النجاح أو الدراسة.. أو العمل.

"نهاية الفتاة بيتها وزوجها وأولادها، لن تفيدك الدراسة في شيء"، تلك كانت الكلمات التي نشأت وأنا أسمعها من أقرب الناس إليّ.. فكانت النتيجة أنني لم أفكر في أي شيء إلا كيف أكون زوجة مثالية؛ فبرعت في أعمال المنزل، وكنت طباخة ماهرة، حتى إنني تفوقت على معلمتي التي كانت أمي.. حصرت

تفكيري في زوج المستقبل، والفستان الأبيض، والهدايا التي سأحصل عليها.. وأنني سأنتقل إلى العيش في بيت أجمل أكون سيدته وأُكوّن أسرتي الخاصة.

ومع دخولي سن السابعة عشرة، بدأ طابور المتقدمين إلى خطبتي بالتكاثر، بعضهم أبناء صديقات أمي، وبعضهم من طرف أبي، وآخرون لا نعرفهم.. في تلك الفترة كانت غالبية صديقاتي في المدرسة يعيشن هذه التجربة نفسها.. ومنهن مَن لبسن خاتم الخطوبة لتأتي الواحدة منهنّ تتباهى أمام الأخريات بأنها تلبس خاتمًا أكبر وأجمل.. أردت أنْ أعيش التجربة نفسها.. أردت أنْ أتباهى.. أردت أنْ أعيش قصة الحب الخاصة بي كما كانت تعيشها الفتيات في مثل عمري.. ولم أجد أمامي إلا يوسف ليشغل تفكيري.. وتزيد أمانيّ في أنْ يكون هو الإنسان الذي سيتزوجني.. لم أكن أعرف ما إذا كان يبادلني قليلًا من تلك المشاعر الكثيرة التي ضاق بها قلبي الصغير فلم يعد يتسع.. لكنّ نظراته إليَّ حين كنت أتعمّد مصادفته في المنزل، ابتسامته الخجلى ويشيح نظره بعيدًا حياءً منّي، كانت تخبرني أنه ربما هو أيضًا يميل إليّ.. "أنت ترين ما تريدين رؤيته"، كانت تقول لي صديقاتي.. ربما كنَّ محقات.. ولكنْ جاء اليوم الذي أثبت لي ولهنّ أنّ ما كنت أشعر به كان حقيقيًا.

كنت في المطبخ أغسل الصحون وعلى أذنيّ كنت أضع سماعات جهاز "ووك مان" غارقة في كلمات ماجدة الرومي وهي تغني:

"يسمعني حين يراقصني.. كلمات ليست كالكلمات.. يمسكني من تحت ذراعي، يزرعني في إحدى الغيمات..."، وأميل بجسدي يمينًا ويسارًا، قطعت انسجامي هزّات على كتفي، التفت فإذا هي الخالة فاطمة.. إنها من أقدم صديقات أمي وأقربهن إليها.. كانت تزورنا مرّتين يوميًّا: في الصباح لتناول القهوة مع أمي، وفي وقت العصر لتشرب الشاي وتخبر أمي بكلّ جديد حصل في الحي.. مَن تزوج؟ مَن طلق؟ من توفي؟ و.. و..

أذكر ذلك الحوار بحذافيره.. أذكر إحساسي حينها.. أذكر يديّ المتعرقتين من شدة الخجل.. والحرارة التي شعرت بها في وجهي.. كدت أشعر بكلّ نبضة في قلبي الذي كاد يخرج من مكانه.. جلست على الكرسي بعدما قالت لي:

"يوسف يريد أنْ يتقدم لخطبتكِ.. كلّمني البارحة وطلب منّي أنْ أرى ما رأيكِ قبل أنْ يفاتح أباك في الموضوع".

لم أُجبها حينها.. لكن ابتساماتي الخجلى.. صمتي.. وجنتيّ الحمراوين، لم تترك مجالًا للشك في أنني موافقة.. ولست أي موافقة.. فاكتفت هي بالابتسامة والخروج من المطبخ: "أكملي ما كنتِ تفعلين"، وتركتني وأنا في صدمة.. ذهول.. خجل.. وضعت السماعات على أذنيّ لتكمل ماجدة: "وأنا كالريشة في يده.. كالريشة تحملها النسمات.. يهديني شمسًا.. يهديني صيفًا.. وقطيع سنونوات.. يخبرني أني تحفته وأساوي آلاف النجمات".

في البداية، ظننت أنه مجرد كلام، طيش شباب كما هو متعارف عليه، ربما قال لها هذه الكلمة ثمّ غيّر رأيه، ربما لم يقصدني أنا والخالة فاطمة تسرّعت في إخباري.. بقيت ضحية نفسي وتساؤلاتها يومين، لم يتكلم فيها أحد عن الموضوع، لم يذكر فيها اسم يوسف أمامي، ولم تأتِ أمي لتكلمني في الموضوع كما كانت تفعل حين يتقدم أي أحد آخر.. لم أجرؤ على أنْ أسأل.. حتى يوسف لم يأتِ إلى منزلنا في اليومين السابقين؛ ممّا زاد شكي في أنه ربما أخطأ أو ندم على ما قال.. بعد أسبوع، جاء يوسف ووالده إلى منزلنا، شعرت بأنّ تلك الزيارة لم تكن لشرب الشاي ولا مشاهدة مباراة، لم تتركني أمي لأتساءل مع نفسي كثيرًا، فجاءت لتخبرني أن يوسف وأباه هنا ليطلبا يدي من أبي.

كان الموضوع أسهل وأسرع ممّا كنت أتصور، عُقِد قراني أنا ويوسف بعد أسابيع من تلك الزيارة.. أصبحنا متزوجين على الورق.. ألبسني الخاتم وأصبحت ملكه أخيرًا.. لم يكن هناك شيء يستطيع أنْ يصف سعادتي حينها..ملك قلبي وعقلي وكلَّ جوارحي فلم أرَ غيره.. لم أكن أضع خاتم خطبتي جانبًا خشية أنْ يضيع أو أنْ أفقده.. كان بالنسبة إليَّ أكثر من مجرد خاتم، كان مرتبطًا بالمرة الأولى التي لَمَسَت يدا يوسف يديَّ؛ فشعرت بأنّ الدماء قد جفّت داخل عروقي.. كانت يداه ناعمتين كالقطن، كم كنت أتمنى أنْ يقف الوقت وتطول تلك اللحظات التي كنت فيها أجلس إلى جانبه أوّل مرّة في مجلسنا المتواضع ونساء

الحي حولي يبتسمن ويباركن لي.. بعضها كانت ابتسامات فرحة من القلب كابتسامة الخالة فاطمة وقبلاتها لي، وتحذير يوسف من أنْ يفعل أي شيء يغضبني أو أنْ يحزنني.

أمّا بعضها الآخر فكان حسدًا وحقدًا؛ فلم تبقَ امرأة في حيّنا أو من معارفنا إلا أرادت يوسف لابنتها.. لكنه هنا.. معي أنا.. اختارني أنا من بينهن جميعًا.. كدت أحسد نفسي عليه.. كلّما كان يقترب منّي أكثر ليهمس في أذني ليقول لي شيئًا أشعر بأنفاسه قريبة وهو يتكلم.. فأغمض عينيّ من دون إرادتي حتى أستمتع بتلك اللحظات.. كانت يداي ترتجفان من هول اللحظة.. هو إلى جانبي.. وكثير من النساء حولي ينظرن إلينا.. فيمسك بيدي ليوقف ارتعاشها.. فيفصلني عمّن حولي.. أشعر كأنني وهو وحدنا في المكان..

كنت ما زلت في المدرسة في الصف الثالث الثانوي، وما زال العام الدراسي في أوله.. وعلى الرغم من عدم اكتراثي بالمدرسة، والدراسة، والتخرج، أصرّ يوسف على أنه عليَّ أن أتخرج في المدرسة وأحصل على شهادة الثانوية العامة ومن ثم نتزوج.. وافقته على اقتراحه على مضض وبدأت أعدّ الأيام والليالي راجية من الله أن تمرّ بأسرع وقت ممكن..

«ماذا ستفعلين؟!»، «هل سترسلين إليه ردًّا على رسالته؟!»، أخبريني!».

شعرت برغبة في الضحك من حماس زينة للرسالة، كانت متحمسة أكثر منّي.. في داخلي كانت لديّ رغبة شديدة في أنْ أبعث برسالة إلى يوسف وأسأله أين هو وما حياته الآن وماذا يعمل.. و.. و.. و.. ولكنْ حين تصفعني الذاكرة وتعيدني إلى حيث كنت، إلى ما فعله يوسف، وكيف أنّ كلّ ما مررت به كان بسبب ضعف منه وتركه لي في وقت كنت لا أحتاج غيره.. يتملكني الغضب والشعور بالرغبة في الانتقام، الرغبة في جرحه كما جرحني، الرغبة في أن أتركه يعيش صعوبة الانتظار كما عشتها أعوامًا.. لم أعرف ما حصل معه، ولم أعرف ما إذا تزوج أم لا، ولم أعرف هل هو موجود في البلاد أم سافر أو هاجر.. منذ اليوم الذي وقّع يوسف تلك الورقة المشؤومة وأنا لم أعرف عنه شيئًا.. بل لم أرغب في أنْ أعرف عنه شيئًا.. كانت تلك الحقبة بالنسبة إليّ كالحفرة السوداء في حياتي التي استطعت الخروج منها بصعوبة شديدة.

«لا أعرف يا زينة.. شوري عليّ؛ فأنا مشلولة التفكير.. لا أعرف ماذا أفعل، أريد أنْ أفعل الصواب».

أعادت زينة ظهرها إلى الوراء.. وأصلحت وضعية جلوسها، ووضعت إحدى رجليها فوق الأخرى، ثم أخذت رشفة من فنجان القهوة الذي بيدها.. ونظرت إليَّ نظرة المرشدة الاجتماعية في المدرسة.. وبقيت صامتة تهزّ رأسها من دون أنْ تقول شيئًا.. وبعدها سألتني: «أخبريني بِمَ تشعرين تجاه ما حصل».

أخذت حزمة الأوراق التي على مكتبي وفاجأتها بضربة على كتفها:

«بعد كلّ هذا الصمت والتنهد.. هذا الذي استطعتِ قوله؟!!!».

ضحكت زينة وهي تمسح قطرات القهوة التي تناثرت على قميصها وقالت:

«ما بكِ؟!.. أسألكِ فيما تفكرين.. أريد أنْ أعرف ماذا يدور في عقلك».

«قلت لكِ لا أعرف.. مُشوشة.. متفاجئة.. لديّ الكثير من الأسئلة التي أريد أنْ أسألها.. ولكنْ لا أدري هل سأستطيع أنْ أراه مجددًا.. مرت ستة أعوام يا زينة.. ما الذي جاء به من جديد؟!».

«حسنًا؛ اسمعي.. عندي فكرة.. ما قلتِه الآن لي.. أرسليه إليه.. وانتظري ماذا سيرد».

«اليوم؟! هل أرد عليه اليوم؟!».

«لاااا.. دعيه ينتظر.. أيامًا.. ثمّ اكتبي له وكأنكِ لا تعرفين من هو أو أنك لم تتذكري مَن يكون، دعيه يشعر بأنه لم يكن بؤرة اهتماماتكِ طوال هذه الأعوام وأن لديكِ الآن حياة سعيدة جديدة لم يكن جزءًا منها».

عادت كلّ منَّا إلى عملها.. وظلّ عقلي منشغلًا.. هل نسيته فعلًا..؟! هل يهمني أمره الآن..؟! هل أسمح له بأنْ يدخل حياتي مرة أخرى بعدما اختار الخروج منها..؟! ما الذي سيتغير لو سمحت له بالاقتراب منّي مرة أخرى.

انتهى الدوام وذهبت لإحضار مريم من الروضة.. كان فكري

مشوشًا ولم أسمع كلمة ممّا قالته ابنتي في السيارة، حتى نادتني قائلةً:

«مااااا.. انظرييي».

لم أستمع إلى ما قالته حتى أعرف ما أجيبها..

«أنا متأسفة يا حبيبتي، لم أسمع ما قلتِه.. لقد كان يومًا صعبًا في العمل، ماذا كنتِ تقولين؟!».

«رسمنا اليوم صورة العائلة.. هذه أنتِ.. وهذه أنا.. عائلتنا صغيرة ماما.. سحر لديها أربع أخوات.. وعلي لديه أب وأخ وأخت.. هل ممكن أنْ تحضري لي أختًا، أريد أنْ ألعب معها؟!».

كانت تلك التساؤلات التي خشيت أنْ تبدأ مريم بسؤالها: لِمَ ليس لديها أب وإخوة وأخوات كبقية أصدقائها في الروضة.. كنت أخشى دائمًا أنْ تشعر بأنها أقل من أحد، أو ينقصها شيء.. أعلم أنّ حوارًا كهذا لا بد منه يومًا ما، ولكنْ متى؟! كان هو السؤال الأهم الذي لطالما كنت أسأله لنفسي.. في كلّ مرّة أتردد.. أخاف.. وأتراجع.. ثمّ أقول في نفسي ما زالت صغيرة لتفهم ما سأقول، فينتهي بي الأمر بعدم إخبارها.. تأجيل المصارحة ربما.. أو ربما عدم إخبارها إلى الأبد.. وفي رأسي كنت أتساءل: هل يعرف يوسف بأمر مريم..؟! هل مَن أخبره بعنواني أخبره بأني أم الآن..؟! كان عدد التساؤلات في داخلي يزيد في عدد ضربات قلبي.. وعدد المرّات التي آخذ فيها نفسي.. كم أتمنى لو أنني أملك جهازًا لإيقاف التفكير بضغطة

زر واحدة.. كم سيكون ذلك مفيدًا..؟!

قررت ألا أرسل شيئًا ليوسف حتى أستطيع أنْ أفكر بشكل صحيح؛ فدخوله حياتي مجددًا سيحمل الكثير من الذكريات والآلام، سيحمل الماضي الذي هربت منه، لكنه ومن دون شك سيحمل معه تلك المشاعر التي افتقدتها والأحاسيس الجميلة التي أرغمت على نسيانها، تلك التي لم أشعر بها إلا معه.

كنت كالوردة التي تفتَّحت بين يدي يوسف.. رأيت العالم معه بشكل آخر.. لم يكن يسمح لي أبي بأن أخرج معه وحدي.. فكان يأتي يوميًّا إلى المدرسة في نهاية الدوام المدرسي ليراني.. كان دائمًا يأتي بكامل أناقته فتنظر إليَّ جميع فتيات المدرسة بنظرات الحسد والغيرة وكأنّ أعينهنّ سهام تنطلق ناحيتي تريد أنْ تطرحني أرضًا لتأخذ الواحدة منهنَّ مكاني.. كنت أقف مع يوسف أمام باب المدرسة لأسلّم عليه وآخذ منه ما جاء ليعطيني إياه، وأعطيه أنا شيئًا في المقابل.. كنا نتبادل الرسائل، أو الورود، أو أشرطة الأغاني لفنانينا المفضَّلين أو.. أو.. وتكثر الهدايا.. ويكبر حبه في قلبي.. لم أفكر في امتحاناتي ولا في دراستي ولا نسبة الثانوية العامة التي كانت هاجس صديقاتي.. فقد كنت أرى الحياة هي يوسف ويوسف هو الحياة.. كنت أرجو أمي وأبي أنْ يسمحا لي بأنْ أخرج معه ولو مرّة واحدة.. جربت الدموع والرجاء وفعل كل ما أستطيع لإرضائهما لكنهما كانا يرفضان

دائمًا.

لم أيأس من طلبي، وفي مرّة أظنّ أنّ أمي لم تستوعب ما الذي كنت أطلبه؛ فقد كانت في قمة التركيز في القصة التي تحكيها لها الخالة فاطمة، طلبت منها أنْ يوصلني يوسف إلى بيت صديقتي لأدرس، وبدأت برصّ الأسباب التي جمعتها لها بأنني لم أجد غيره ليوصلني؛ فأبي في عمله وخالي ليس موجودًا، ويحتمل من أنْ أرسب إنْ لم أذهب اليوم إلى بيت صديقتي لأدرس، لأنها لا تستطيع القدوم هي إلى بيتنا و.. و.. ولتتخلص منّي ومن إلحاحي الذي لم يتوقف، أشارت لي بيدها أنها موافقة لأخرج من المجلس فحسب وتستطيع أنْ تجلس مع صديقتها بهدوء:

"اذهبي.."، وبسرعة فائقة وقبل أنْ تغيّر رأيها، خرجت من الغرفة لأبدل ملابسي، لم تكد قدماي تلمسان الأرض من السرعة التي خرجت بها.. لكن أمي أكملت: ".. وخذي معك أخاكِ"، لكنني لم أكترث؛ فأنا سأخرج مع يوسف، كانت فرحتي لا توصف، اتصلت به وطلبت منه أنْ يأتي ليأخذني، لم أسمع إجابة؛ فقد أغلق السماعة في وجهي، وبعد دقائق معدودة، دق باب منزلنا وفتح له جابر الذي كان قد بدأ يتصرف كالرجال، سلَّم وخرجنا نحن الثلاثة، كانت علامات خيبة الأمل قد ارتسمت على وجه يوسف المسكين حين استوعب أنّ جابر سيأتي معنا.. ولكنْ مع هذا لم يعكر هذا صفو جوّنا.. جلست في المقعد الخلفي وجابر

في الأمامي.. عدّل يوسف المرآة الأمامية للسيارة ليرى فيها وجهي وليس الشارع من خلفه، وظلّ ينظر إليّ من خلالها أكثر من متابعته الشارع.. شغّل لي أغنية عبد الحليم.. ورفع الصوت لأفهم أنّ الأغنية إهداء لي:

«حاجة غريبة.. حاجة غريبة.. الدنيا لها طعم جديد.. حاجة غريبة.. أنا حاسس إن دا اليوم عيد.. « فأشعر أنني شادية أجلس خلفه على دراجته وأضع يدي حول خصره وأغني « وأنا حاسه الدنيا هربانه.. ويانا في ليل كله سعاده.. ليها فرحه حلوه في عينيّة.. وحلاوتها سكرها زياده.. إنت عارف ليه» ... «قولي إنت ليه».. فأرد عليه بكل دلع «علشان احنا مع بعضينا ولأول مرة لوحدينا.. ولا حدش بيبص علينا غير فرحة قلبنا وعنينا» ويغني عبدالحليم بصوته الحنون.. وترد عليه شادية برقّتها، يقولان ما نشعر به.. فتتكلم عيناي.. وترد عليَّ ابتسامة يوسف، انقطعنا أنا وهو عن العالم.. وكأننا وحدنا، لا أحد معنا متجاهلين تمامًا وجود جابر أخي نائمًا في المقعد الأمامي.. أمسك بيده وأطير معه فوق السحاب..

لم أعرف متى وصلت إلى بيت صديقتي، وماذا فعلتُ هناك ولا ما درسناه هناك.. ظلّت كلمات الأغنية تدور في بالي ولم أسمع كلمة ممّا قالته صديقتي، وعدت إلى المنزل وكلّي شوق إلى اليوم المقبل حتى أراه بعد الدوام المدرسي.. كلما كنت أراه أردت أنْ أراه أكثر.. وأنتظر اليوم الذي سيجمعني به في بيت واحد بعيدًا

من كل مَن كان حولنا.

كم كنا أنا ويوسف مجنونين.. كنت أتعمَّد أنْ ألبس قميصًا مخالفًا للمدرسة؛ فترغمنا المديرة على أنْ نتصل بأهالينا ليحضروا لنا قميص المدرسة الرسمي، فتتصل الفتيات بأمهاتهن وإخواتهنّ، وأتصل أنا بيوسف.. فلا تمر الساعة إلا وأراه مطلًا عليَّ في إدارة المدرسة ورائحة عطره تملأ المكان؛ فتتحول نظرات الفتيات جميعهن تجاهه، وأنظر إليهنّ باستهزاء؛ فهو قادم لأجلي.. يدخل إدارة المدرسة إلى حيث يرغمون الفتيات المخالفات على الانتظار، أفزّ من مكاني حين أراه.. أذهب إليه فيقبّلني على جبيني.. يعطيني الكيس الذي يحوي قميصًا جديدًا، ورسالة أو هدية في داخله.. ثمَّ تقابله المختصة الاجتماعية.. كانت تطلب منه إثبات شخصية.. ولكنْ مع الأيام وكثرة قدومه إلى مدرستي، أصبح معروفًا بينهن؛ فتسمح لي المختصة بالجلوس معه قليلًا.. وإذا كانت في مزاج جيد تسمح لي بعد إلحاح شديد بأنْ أخرج معه.. فهو زوجي رسميًّا.. فيأخذني معه لنتناول طعام الإفطار في مكان كنّا نحب أنْ نجلس فيه بهدوء؛ فنتكلم عن أمانينا، وأحلامنا وحياتنا المستقبلية: كم من الأطفال نريد؟! ماذا سنسميهم؟! حتى عن بيتنا تكلمنا، وكم غرفة سيكون، وفي أي حيّ سنسكن، نتكلم وتكبر أمانينا فأراها أمامي حقيقة.. لمسة يده لي وكلامه عن حبه لي يشعرانني بأنني أميرته.. وأنه لا يرى سواي؛ فلا أكاد أقوى على الحراك.. يعيدني إلى المدرسة

وأنا كالمخمورة به وبكلماته.. لا أقوى على التفكير ولا الكلام.. أضع يدي على صدري خشية أنْ يخرج قلبي من مكانه من شدة دقاته.

مع الأيام، أصبح أبي وأمي يسمحان ليوسف بأنْ يوصلني إلى المدرسة بعدما طلب منهما ذلك.. فأصبح الذهاب إلى المدرسة من أسعد الأوقات بالنسبة إليَّ.. كان الوقت الذي نقضيه وحدنا؛ نتكلم، أو يحل الصمت لتتكلم جوارحنا، يدانا، نظراتنا، أو تنهيداتنا.. يعطيني مصروفي اليومي، كنت في البداية لا أقبل أن آخذ منه أي شيء.. ولكنْ وبعد مشاجرة بيننا أقنعني: "أنتِ مسؤولة منّي الآن.. فأنتِ زوجتي.."، كان هول الكلمة يفقدني القدرة على التفكير فأقبل كل ما كان يطلبه مني كالمسحورة.

ولم أكن وحدي مَن سحرني يوسف بطيبته وشخصيته الجذابة، لقد كان جميع مَن في بيتنا قد عدَّه فردًا من أفراد العائلة؛ فقد كانت أمي تختاره لتطلب منه الذهاب معها إلى السوق أو الجمعية أو إيصالها إلى بيت إحدى صديقاتها، أو في بعض الأحيان تطلب منه شراء بعض حاجات المنزل.. أمّا أبي فقد كان لا يأمن غيره على أنْ يقوم بإيصال إخوتي من المدرسة إلى البيت.

في الوقت الذي أصبح يوسف حبيبًا لي، أصبح أخًا لإخوتي وابنًا لأمي وأبي.

قبل فترة من الامتحانات النهائية، قال لي يوسف إنَّ عليه أنْ

يذهب إلى المدينة ويبقى عدة أيام لينهي عملًا ما، حزنت لأنني لن أراه طوال تلك الفترة، لكنه وعدني بأنه سيتصل بي، وطلب منّي أنْ أركز في دراستي لأتخرج ونتزوج، لكن الدراسة كانت في عالم وأنا في عالم آخر تمامًا.. كنت أقضي وقتي بين دور الخياطة مع أمي.. أحاول أنْ أفصّل ما أحتاجه من فساتين، والوقت المتبقي كنت أحاول أنْ أدرس فيه مع صديقتي صفاء.. كانت أذكى منّي بمراحل.. فما أحتاج إلى فهمه يومًا كاملًا كانت صفاء تفهمه بساعة.. فكنت أعتمد عليها اعتمادًا شبه كلي في دراستي وأنْ تغشّشني في الامتحانات.. كنّا أربع صديقات مقربات جدًا في المدرسة.. في تلك الأيام وخلال تجهيزاتي للزواج، كنت قد وكلت كلًا منهنّ بمهمة أعرف أنها تستطيع أنْ تؤديها.. صفاء كان عليها أنْ تختار قائمة الطعام وأنْ تطبخ ما تستطيع طبخه؛ فقد كانت مبدعة وطبّاخة ماهرة.. نورة كانت من أغنى صديقاتي.. من طبقة راقية جدًا، تعرف كلّ دور الأزياء المعروفة، ولهذا وعدتني بأنها ستهديني فستان حفل الزفاف بمناسبة زواجي.. وأخيرًا مها كانت تختار معي ما تبقّى من ملابس ومجوهرات، وكانت مستشارتي الرسمية في أي موضوع يختص بيوسف.. فهي العقلانية المتزنة، أستشيرها إذا ما شعرت بأنني أحتاج أنْ تخبرني ماذا أفعل حين كنت أختلف مع يوسف، وكيف يجب أنْ أتصرّف وأنا معه.. من قراءاتها المستمرة في كلّ المجالات وفي العلاقات، كانت تستطيع أنْ تحسب حساب كلّ شيء وتجد

حلًّا لأي موضوع.. كلّ واحدة منهنّ كانت تضيف طعمًا متميزًا إلى حياتي، وأعدّها نافذة من نوافذ عالمي، تخرجني منه إلى عالمها؛ فأتعلم منها ما لم أستطع تعلمه في بيتنا.. كنت أحب صداقتهنّ ووقفتهنّ معي لا تنسى.

عدت إلى المنزل أنا ومريم، وبدأت بتجهيز الغداء، قررت أنْ أنسى ما حصل، لا أريد لشيء بسيط كهذا أنْ يغيّر حياتي؛ فهو لا يعني لي شيئًا.. جلسنا أنا ومريم وتناولنا الغداء وطلبت منها أنْ تخبرني بما حصل معها في المدرسة.. أحب أنْ أستمع إليها وهي تروي، وأحاول تشجيعها على ذلك.. شخصية مريم هادئة جدًّا.. يمكن أنْ تنسى أنها موجودة في المنزل، تحب أنْ تلعب وحدها أو معي فحسب، كانت انطوائية وهذا الشيء الذي كنت أخشى عليها منه.. تغيرت كثيرًا بعدما أدخلتها الحضانة وبعدها أصبحت منفتحة أكثر في الروضة.. كنت أحاول أحيانًا أنْ أرغمها على الذهاب إلى الحفلات التي تقام في منزل أحد زملائها في الفصل، حتى تستطيع أنْ تكوّن صداقات أكثر ولتزيد ثقتها بنفسها أكثر، وأظن أنني بدأت أنجح في ذلك نوعًا ما.

علقت الصورة التي رسمتها مريم على الثلاجة إلى جانب صورتها وهي بين يديّ طفلة رضيعة.. كيف تمر الأيام سريعًا من دون أنْ تسمح لنا بالتقاط أنفاسنا.. بدأت بتنظيف الصحون ثمّ ذهبت إلى غرفتي لأرتاح قليلًا بعد هذا اليوم الشاق، جسديًّا ومعنويًّا.. رسالة يوسف في هذا الوقت أعادتني إلى أيامي القديمة، وأيقظت شوقي إلى صديقتي القديمة ومستشارتي التي مرّ وقت طويل على آخر مكالمة هاتفية بيننا.. ذهبت لتكمل دراستها في الخارج.. فانقطعت أخبارها عنّي فترة طويلة، لكنها عادت قبل أشهر إلى البلاد وقابلتها واسترجعنا معًا ذكريات طفولتنا ومراهقتنا

المجنونة؛ فقررت أنْ أستشيرها بما حدث:

«مها؛ كيف حالك؟».

«أهلًا ليلى، كيف حالك؟! اشتقت إليك؟».

«وأنا أيضًا.. اسمعي؛ أريد أنْ أقابلك.. ثمّة أمر أريد أنْ أستشيرك فيه».

«حسنًا؛ تريدين أنْ آتي إلى منزلك؟».

«نعم.. تعالي.. أنا أنتظرك».

وجاءت مها ولم تُغيرها الأيام.. الملامح الجميلة نفسها كجمال الأطفال.. لم تتزوج حتى الآن، ولم ترتبط بأي علاقة عاطفية؛ فكرست جهدها ووقتها لدراستها وعملها، أنهت دراستها الجامعية في لندن وتكمل دراستها الآن لتحصل على شهادة الماجستير هنا في البلاد.. أفخر بها وباجتهادها.. لطالما أردت أنْ أراها سعيدة في بيت زوج يحبها ويقدرها.. وتنجب أطفالًا من صلبهما لتُكوّن أسرة سعيدة، كان لها إيمان قوي أنّ لكل شيء سببًا في الحياة، وأنّ الله لا يأخذ من عبد شيئًا إلا ليعطيه شيئًا أفضل.. فلو كانت تزوجت لما كانت وصلت إلى هذه الإنجازات في حياتها.. جميل أن يكون للإنسان هدف واضح أمامه، يعرف ما هو وكيف يصل إليه، فيوظف كل ما حوله لتحقيق ذلك الهدف، تسهل الحياة ويصبح لها معنى.. هدف مها كان ومازال هو الدراسة والنجاح فيها.. فسعت بكل ما أوتيت به من قوة نحو هدفها ومازالت تمضي نحوه.. أما

أنا، ففي السابق لم يكن لي هدف إلا أن أكون زوجة، وحين فشلت في ذلك، تبعثرت حياتي وشعرت بالضياع وانعدام المعنى للحياة.. إلى أن جاءت مريم لتمنحني هدفًا جديدًا في حياتي ليكون تربيتها ومنحها كل ما أستطيع لتحظى هي بحياة سعيدة ومليئة بالإنجازات فمها الآن تعيش مع أمها المسنّة التي ترعاها وتهتم بها بعدما تزوج جميع إخوتها.

وبعدما احتسينا القهوة، تكلمنا عن حياتنا وما حصل لنا في الفترات الماضية.. أخبرتها عن رسالة يوسف وعن حيرتي فيما يجب أنْ أفعل الآن وما هو الصواب.

«اسمعيني يا ليلى.. إنْ لم يكن أمر يوسف يهمك حتى الآن لما كنت ستحتارين كلَّ هذه الحيرة.. ولن تقلب يومك رسالة واحدة منه».

لم أتوقع منها هذا الرد، فصمت وتركتها تكمل..

«حبكِ ليوسف كان أكبر من أنْ ينسى مع الأعوام، وكلانا يعرف ذلك.. وحبه لكِ شهد به جميع مَن عرفناه.. فلم يكن يخجل من أنْ يقف أمام بيتكم ليلًا نهارًا ليرمي الورود حتى تريها أنتِ..». ضحكنا معًا حين تذكرنا تلك الأيام، كانت أفعال يوسف أحيانًا مضحكة.

«ولكن يا مها تعلمين أنه تركني.. تعلمين ما حدث وماذا فعل أهلي بعدها.. كيف أغفر له وقد حطم حياتي وبسببه أطلق عليّ لقب المطلقة ولم أكمل العشرين من عمري..».

«رسالته دليل على أنّ لديه ما يقوله.. فقد كان في إمكانه أنْ يرتبط

بغيرك ويتزوج وينجب أطفالًا وينسى أمرك تمامًا.. فما الذي يجبره على مراسلتكِ الآن.. أنتِ امرأة ناضجة عاقلة وأم، لستِ ليلى المراهقة، لن يضركِ كلامه لو سمعتِه.. أعطه فرصته.. ربما لديه ما يقوله وربما لديه عذر لما فعل.. وإلّا ستظلين بهذه الحيرة حتى آخر يوم في حياتكِ إذا لم تسمعيه».

«إذًا هذا رأيك..؟».

«هذا ليس رأيي؛ إنه كلام العقل والمنطق.. ليس من الصواب ألا تردي عليه أو ألا تسمحي له بمقابلتكِ والكلام معكِ حتى قبل أنْ تعرفي ماذا يريد.. مَن يدري يا ليلى؛ لعلّ نيته خير ويريد أنْ يصلح ما كسرته الأيام..».

«بعض الكسور من الصعب أنْ تصلحها رسالة أو مقابلة يا مها، وإن أُصلحت فالشقوق تبقى موجودة لا تمحوها الكلمات والاعتذارات.. ما أدراكِ.. ربما كان يريد أنْ يلعب بي وبمشاعري مرّة أخرى.. لقد تعبت يا مها.. تجاوزت الأمر بصعوبة.. لا أريد أنْ أعود إلى تلك الأيام».

«ليلى؛ إنه يوسف.. لقد كبرتِ أمامه.. تربى معكم، صديق خالكِ وأبيكِ.. لا أتوقع أنه عاد بعد كلِّ تلك الأعوام ليريد شرًّا أو إساءة.. إنه أنبل من أن يكون جاء يريد أن يجرحك مرة أخرى.. تساءلنا جميعنا عما دفعه لذلك الرحيل.. هل تذكرين كم كنت أقول لك إن شيئًا كبيرًا حصل أكبر منه هو الذي أجبره على ما فعل..... هل تذكرين...؟».

كنت أذكر أكثر من اللازم.. كان كلام مها منطقيًّا يخلو من الخوف أو التوتر.. كنت محقة حين اتصلت بها فهي التي عاشت تجربتي معي وتعرف معاناتي وإحساسي أكثر من أي إنسانة أخرى.. بالفعل أنا لم أعد فتاة السابعة عشرة التي تذوب حين كان يعطيها وردة أو يقول لها كلامًا جميلًا، لن تؤثر فيّ تلك الكلمات إذا كان لديه ما يقوله فليقل وسأسمع، ربما أجابني عن كل تلك الأسئلة المعلقة في ذهني والتي لم يستطع أحد أن يجيبني عنها.. تناولنا معًا طعام العشاء وفي آخر الزيارة شكرتها جدًّا ووعدتها بأن أرسل إلى يوسف ردًا لائقًا وأن أخبرها بما سيحصل معي إذا قررت مقابلته.. قبّلت مها مريم وطلبت مني أن نخرج نحن الثلاث أو نسافر إلى أي مكان في العالم ونترك كل ما يشغلنا وراء ظهورنا.. راقت لي الفكرة ووعدتها بأنني سأفكر في الأمر بجدية فأنا أحتاج إلى إجازة بالفعل..

كم جميلة هذه الصداقات غير المتكلَّفة، البعيدة من جميع القيود، نبتعد لأيام وشهور وربما سنوات كما هي حالتي مع نورة وصفاء، ولكن يأتي يوم ونعود.. على الرغم من المسارات المختلفة التي فُرضت علينا.. صفاء تزوجت وعادت إلى بلادها، نورة تزوجت سفيرًا وتتنقل معه بين بلاد العالم.. وعلى الرغم من زحمة الحياة ومتطلباتها.. فإننا.. نعود.. تظل قلوبنا صافية لم يلوثها غبار الأيام.. وكأننا لم نَغِب ولو لِلحظات.. حين نرى بعضَنا، تصُب إِحدانا على الأخرى ما عبّأته طوال أيام الغياب.. من دون خوف

من حسد أو ابتسامة من خلفها كره، أو من نصيحة يملؤها العتاب واللوم.. نتذكر طيشنا فنضحك، نرى كم من الوقت مضى، كم كبرنا!! كم تغيرنا! لكن القلوب لم تتغير وكأنها هي ذاتها التي جمعتنا خلف مقاعد الدراسة..

بعدما ساعدت مريم في دروسها وشاهدنا القليل على التلفاز، كان قد حان وقت النوم.. أخذتها إلى غرفتها ومسحت على جبينها بآيات من الذكر.. «أحبك جدًّا يا ابنتي.. يجب أن تعرفي أنك أغلى شيء بالنسبة إليَّ».

كانت نظرات التعجب واضحة على وجه مريم، صحيح أنها معتادة أن تسمع مني هذه العبارات بشكل يومي ولكن من الواضح أن الحيرة التي في داخلي قد بانت على نبرة صوتي.. كنت أريدها أن تعرف أنه مهما حصل لن أسمح لشخصٍ جديدٍ يدخل حياتي قبل أن أتأكد من أنها ستكون بخير.. فيكفي أنها قد حُرمت الأب من دون أي ذنب لها.. بسبب قراراتي وقرارات أبي غير العقلانية والمتسرّعة.. فحاولت بقدر الإمكان أن أعوِّضها، ألا أجعلها ولو لحظة تشعر بالاحتياج إليه...

قبّلتها وتركتها تنام.. وفي غرفتي بقيت مستيقظة وأمامي شاشة الحاسوب، أمعن النظر في الرسالة.. قرأتها من اليمين إلى اليسار، ومن فوق إلى تحت.. ضغطت على زر الإجابة وتشنجت يداي. كنت كلما كتبت كلمة مسحتها ثمّ سطرًا ومسحته، لم أستطع اختيار الكلمات ولا التعابير، كيف أكتب له أنني موافقة على مقابلته

من دون أن أجعله يشعر بأنني ما زلت أريده أو أحبه، فكرامتي لا تسمح لي بذلك.. شعرت بأنه يجب أن أستمع إلى نصيحة زينة وألّا أرسل إليه إجابة اليوم لأدعه ينتظر كما انتظرته.

انتهت الامتحانات وكانت نسبتي في الثانوية العامة مخزية: 55%، لكنها متوقعة، فلم أبذل أي مجهود في الدراسة وقد كنت سعيدة جدًا، لم يهمني أن هذه النسبة لن تسمح لي بدخول أي جامعة حكومية، وبالطبع كانت حالتنا أبسط من أن أستطيع أن أدخل جامعة خاصة، وبالتالي انتهت حياتي الدراسية، كان ما يهمني أنني نجحت وتخرجت وأنهيت دراستي الثانوية وأستطيع أن أتزوج أنا ويوسف أخيرًا.. حتى إنني حين أخبرته بنسبتي انفجر ضاحكًا وقال ساخرًا: "ألم تستطيعي أن تحققي نسبة أقل بقليل من هذه؟!!" لم أجد نكتته مضحكة لكنني ضحكت معه "يجب أن تكون فخورًا فهذا يعني أنك الوحيد في عقلي.. لم يكن هناك متسع يكفي لأي رياضيات أو تاريخ يا أخ يوسف"، ظلّ صامتًا وأنا أسمع أنفاسه تتصاعد في الطرف الآخر من الهاتف.. "تحبينني يا ليلى..؟!" .. "أظنك تعلم الإجابة عن سؤال كهذا..." كلانا التزم الصمت ينتظر الآخر ليقولها أولًا، لم يكن من الضروري أن تسمعها آذاننا.. فالصمت كان قد قالها مرارًا وتكرارًا مئة مرة في الثانية..

"لييييلى.... هذا يكفيييي، أغلقي الهاااتف" كانت صرخات

أمي التي كان يوسف يسمعها أكثر مني تعلن إنهاء المكالمة، بالطبع سيسمعها فالهاتف في منزلنا يقع في المجلس حيث جميعهم يتجمعون حول التلفاز، لكنهم في الواقع يضعون تركيزهم مع من يتحدث في الهاتف فيرمون عليه التعليقات السخيفة والاستهزاء به وخصوصًا لو كنت أنا من أحدث يوسف..

كان يضحك حين يسمعها تصرخ ويقول: "أرسلي سلامي إلى عمتي..." "أخبرني متى ستعود؟؟".. "لا أعلم قريبًا إن شاء الله".. "أنا في انتظارك يا يوسف.. لا تتأخر أرجوك.."..

لم يكن القريب الذي وعدني به يوسف بالقريب.. انتظرته لكنه تأخر.. بقيت أحسب الساعات والأيام لكنه لم يرجع.. حين كان يتصل بي ليطمئن إليّ.. مكالمة بعد مكالمة كان هناك شيء لا أفهمه يختلط بصوته، غموض، أو امتزاج الحزن مع الاختناق.. "صوتك لا يعجبني يوسف.. ما بك؟! هل أنت بخير..؟"...لم أكن أحصل منه على إجابة بل مجموعة من التنهيدات التي تتخللها الآهات.. ولن أستغرب لو أن عينيه كانتا تدمعان مع تنهيداته.. "هذا من شوقي لك فحسب لا تقلقي.." .."عد إذًا"..

"لدي عمل لم أنهه، سأعود في الثانية التي أنهي فيها أعمالي.."..

وبعدها أنهى مكالمته بـ"سامحيني يا ليلى لو كنت قد غلطت بحقك..." .. "ما الذي تعنيه.. أنت لم تغلط بحقي قط! ما بك يا يوسف؟" .. " لا شيء، أتمنى لو أنني معك الآن هذا كل ما في

الأمر"... ثم أنهى المكالمة بكلمة.. "أحبك يا زوجتي"..

على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التي يقولها لي بهذه الطريقة، فإنني لم أسعد بها، إن شيئًا فيها لم يكن مريحًا، دعوت الله في تلك الليلة أن يعيده إليَّ يوسفًا غانمًا من سفره المريب الذي لم أعد أعرف عنه شيئًا..

مرّ يومان على تلك المكالمة التي لم أفهم منها شيئًا من دون أي اتصال منه، انتظرت وانتظرت ولكن من دون فائدة.. لم يتصل بي مدة خمسة أيام بعدها.. كم تمنيت حينها لو سألته أكثر عن مكان عمله ذاك، أو من معه، حتى أستطيع أن أتواصل معه أكثر.. حاولت الاتصال به عدة مرات لكن المرأة المستفزّة كانت تتكلم من الطرف الآخر قائلة: "إن الهاتف الذي طلبته مغلق، أو خارج نطاق الخدمة حاليًا، يرجى الاتصال لاحقًا" حتى كدت أكسر سماعة هاتف بيتنا من كثرة ما سمعت تلك الجملة نفسها..

كنت على مشارف الجنون حين لم أسمع عنه شيئًا مدة أسبوعين، ولست أنا الوحيدة؛ فخالي وأبي أيضًا لم يعرفا عنه شيئًا.. خفت أن يكون قد أصابه مكروه، أعرف أنه سائق مجنون، تساءلت: ماذا لو أوقع نفسه في مشكلة ما مع أحدهم وقامت الشرطة بالقبض عليه لسبب ما، فقد فعلها من قبل.. فلم يكن صوته في آخر مكالمة بيننا مريحًا؟!.. كان شعوري قوي جدًّا أن هناك خطبًا ما..

اتصلنا بكل المستشفيات حولنا ومراكز الشرطة أبحث عن اسمه

بينها، ولكن كأنني أبحث عن إبرة في كومة قش.. لم يكن هناك أي بريق أمل يخبرني بأنه موجود، بخير كان أو فيه مكروه.. كم ندمت لأنني لم أسأله أين عمله هذا وما هو بالضبط.. كنت على الأقل استطعت أن أذهب إلى هناك.. استنفدت كل السبل التي قد تساعدني على معرفة ما حصل معه.. حتى بدأ اليأس يعرف طريقه إلي.. وما أقواه من شعور، وجدت نفسي ضعيفة جدًا أمامه.. كانت أيام الانتظار طويلة، نهارها لا تغيب شمسه وليلها لا يطلع فيه نور.. كان إحساس الانتظار قاسيًا جدًا وما زاد قسوته أنني لم أكن أعلم إلى متى سيستمر؛ فلم أكن أرى أمامي إلا طريقًا طويلًا مظلمًا وشائكًا لا نهاية له..

كانت تلك الليلة أصعب من الليلة السابقة.. بقيت مستلقية على سريري في المساء، أحدق في سقف غرفتي وعقلي في مكان آخر تمامًا.. كنت هناك.. مع الرسالة.. تلك الكلمات التي ظهرت على شاشة حاسوبي.. كيف لها أن تكون بتلك القوة التي تمكنها من شغل عقلي وتفكيري بهذه الطريقة.. مجرد كلمات ارتسمت على شاشة زجاجية، لا يبدو عليها أي إحساس، لا تظهر عليها أيّ انفعالات؛ فلا أستطيع أن أعرف ما إذا كان مترددًا حين كتبها من رجفة خط يده، أو مثلًا أن أعرف ما إذا كان قد أعاد النظر في بعض الذي كتبه فأرى آثار الشخبطات على الورقة، أو مزيل الكتابة، لا أستطيع أن أعرف أيًّا من ذلك.. كانت مجرد كلمات جامدة.. لا تأثير لها؛

فكيف لها أن تقلب كياني هكذا..

صحيح أنني قررت الانتظار، لكنني لا أعرف إن كنت أعاقب نفسي بذلك القرار أم أعاقبه هو.. كان الانتظار أصعب عليَّ مما كنت أتوقع.. هل ما زلت أحبه بعد كل تلك الأعوام..؟! هل له القدرة على التحكم بي وبمشاعري إلى هذه الدرجة..؟! هل ما زال يوسف يملك قلبي الذي أعطيته إياه ذات يوم.. فأخذه ورحل من دون أن يعيده إليَّ..؟! أردت أن أنام فلم أنم من ليلة البارحة، أخذت قرصًا مهدئًا ليتوقف صداع رأسي، وقرأت بعضًا من آيات القرآن الكريم علّني أهدأ وأنام..

في صباح اليوم التالي، وصلت إلى العمل باكرًا على غير العادة، ومع أنني لم أبعث بأي رسالة إلى يوسف، فإنني فتحت بريدي لأرى ما إذا كان هناك شيء آخر منه.. ما زالت الرسالة مسيطرة على تفكيري.. ذهبت لإحضار فنجان القهوة، ومررت لأرى زينة فلم أجدها على مكتبها.. غريب..

سألت زميلها: «سيف؛ أين زينة.. ليس من عادتها أن تتأخر؟!».

أجابني من دون أن يبعد عينيه عن شاشة الحاسوب، وهو مستمر في الطباعة: «لا أدري.. لم تكن على ما يرام حين جاءت في الصباح.. عيناها منتفختان وكأنها كانت تبكي وقتًا طويلًا.....».

انفعلت: «ما بها؟!! هل سألتها ما بها؟!! أين هي الآن؟!!».

توقف ونظر إليّ: «وما شأني أن أسألها ما بها؟! أنتنّ البنات نفوسكن

في اضطراب دائم!! لا يحق لي أن أسأل أيًّا منكن أي شيء!!!».

كنت على وشك أن أصب القهوة التي في يدي على رأسه... لكنني تمالكت نفسي، غريب الأطوار هذا السيف، على الرغم من أن شكله لا بأس به؛ طويل القامة، أبيض البشرة، داكن الشعر، عيناه واسعتان تحددهما نظاراته الكبيرة التي تغطي نصف وجهه ممّا يجعل شكله وكأنه طالب في المدرسة، لكن التعامل معه صعب جدًّا، إذا كنت امرأة بالطبع، وكأنه من عالم آخر! لا يحب التعامل مع أي أنثى لأننا كما يقول: «غريبات الأطوار»، لا أعرف ما إذا كان ذلك خجلًا، أم شيئًا آخر.. شتان بينه وبين جمال الذي يرى كل أنثى فريسة سهلة الاصطياد، يراقب تحركاتها من بعيد، لينقض في الوقت المناسب وينهش من لحمها ما يشاء..

«حسابي معك في ما بعد.. أين هي الآن يا حضرة الأخ سيف؟! أين هي الآن؟!! هل تعرف أم لا؟!».

نظر إليَّ نظرة خائفة لأنه أحس بأن تهديدي ليس مجرد تهديد وأنه بالفعل سيلقى حسابه مني قريبًا....

«ذهبت إلى دورة المياه..... أظن.. لست متأكدًا..».

تركته وذهبت إلى هناك فورًا..

«زينة.....! هل أنتِ هنا؟!!!».

من خلف الباب بصوت منخفض سمعت: «نعم..! دعيني قليلًا يا ليلى..».

«أخرجي الآن!! ما بك؟!! هل حصل شيء.....؟!».

... صوت زينة تبكي.....

«زينة.. اخرجي الآن.... افتحي الباب أرجوك... لا أريد أن أرفع صوتي سيسمعني جمال».

وبعد عناء فتحت الباب.... وجهها أحمر كحبة الطماطم الطازجة.. أنفها لا يقل انتفاخًا عن عينيها.. ارتمت عليّ ولفت يديها حول عنقي وانتحبت بالبكاء...

«شششششششش..... اهدئي اهدئي.. اخفضي صوتك.. كل من في القسم سيسمعنا.. ما بك أخبريني؟!... ماذا هنااااك؟!».

بين البكاء سمعتها تقول: «كلهم خونة.. كلهم خونة.. أكرههم».

أبعدت يدَي زينة من حول رقبتي.. ونظرت إليها بغضب... لم تستطع أن ترفع عينيها في عيني.. ظلّت تمسح دموعها بأكمامها..

«هل كل هذا من أجل أسامة؟؟؟.... أو ماذا كان اسمه.. سامر؟!!».

«لم أكن أريد أن أخبرك حتى لا توبخيني وتشمتي بي... أعرف ماذا ستقولين يا ليلى...».

ودخلت دورة المياه مرة أخرى ودخلت وراءها بسرعة..

«تعرفين ماذا سأقول أم تعرفين أن الذي سأقوله صحيح..!!!!... آآآه كم نبهتك يا زينة..!!».

«ليلى أرجوك كفى.. يكفيني ما أنا فيه الآن..لا أريد نصائح.. ولا أريد كلامًا في الموضوع».

«اغسلي وجهك وتعالي إلى مكتبي.. لا أريد أن يراك سيف المعقَّد وأنت هكذا.. وأخبريني ما حدث بالتفصيل..».

كانت زينة على علاقة هاتفية بشاب؛ أسامة، قابَلَته مرة هنا في العمل، قبل ما يقارب الشهر وساعدته على إنهاء إحدى معاملاته، ومن يومها، بدآ بالتعرف إلى بعضهما بعضًا عبر الهاتف والرسائل النصِّيَّة، كنتُ قد سألتها عدة مرات عن طبيعة العلاقة بينهما: ما أساسها وعمّا يتحدثون، وحذرتها أنها يجب ألا تعطي مجالًا لشخص لا تعرفه أن يقترب منها بهذه الطريقة.. لكنها كانت تقول لي إنه مجرد هاتف، لا ضرر فيه على أحد، حذرتها كثيرًا من أن هذه العلاقات العابرة كثيرًا ما تكون الفتاة فيها الحلقة الأضعف، أما الشاب فلا ضرر عليه قد يكون يكلمها هي ويكلم خمس فتيات أو عشرًا غيرها في آن، طلبت منها مرارًا أن تتوخى الحذر معه ولا تنجرف مع عواطفها وتتركه يأخذها بعيدًا بكلامه المعسول ووعوده التي لا تنتهي.. فكل ما كان يفعله كان مجرد كلام لا يضر ولا ينفع...

والواقع، أن أسامة لم يكن الأول في حياة زينة، فقد كانت تتعرف إلى الشباب عبر الهاتف أحيانًا، أو عن طريق المحادثات الإلكترونية، وتقول لي دائمًا إنها مجرد تسلية لا أكثر، تتعرف إليهم لبعض الوقت، وتضيع وقتها معهم ثم تبحث عن غيرهم، لا تقابلهم، ولا تقول لهم أي معلومات شخصية عنها، بل تبقى من خلف الستار. «يحتاج الإنسان في بعض الأحيان أن يتحدث إلى شخص لا يعرف

ماضيه..» هذا كان عذرها لي كلما وبختها أو حذرتها.

أما أسامة فقد كان مختلفًا في حياة زينة، كانت تكلمه طوال الوقت، من دون انقطاع، كنت أراها تتعلّق به أكثر من اللازم، أما هو فلم يفصح لها عمّا يريد من هذه العلاقة، هل كان يريد زواجًا؟! هل يريدها صديقة فحسب، أم كان يتسلى بها وبمشاعرها؟! كم حذرتها منه، فلا يوجد شاب يكلم فتاة بهذه الطريقة إلا إذا أراد منها شيئًا.. كانت هي «تعيش حالة الحب» التي لطالما أرادت أن تعيشها مع أحدهم كما كانت تقول لي.. جازمة كل الجزم بأنه يحبها كما تحبه وأنه يومًا ما سيتقدم لخطبتها ليكملا معًا بقية حياتهما كما وعدها مرارًا وتكرارًا.. أحبته بالطبع، فمن لا يحب الكلام الجميل والورود والهدايا والرسائل....

جاءتني بعدما هدأت، أعطيتها قليلًا من الماء لتشرب...

«أخبريني ماذا حصل.. من دون أن تبدئي بالبكاء أرجوك».

«أرسل لي رسالة.....» أعطتني هاتفها لأرى ما محتواها..

FROM: MY LOVE

اليوم سأعقد قراني على ابنة عمي، كنت وستظلين صديقة عزيزة..

مع حبي، أسامة.

«هل اتصلت به...؟!».

«لا يرد..».

«إنه لا يستحقك.. لا يوجد رجل يفعل ما فعل.. فليذهب إلى الجحيم.. انسيه».

«تقولين هذا وكأنه أمر سهل يا ليلى.. كنت أكلمه البارحة.. لم يخبرني أي شيء.. تخيلي.. كل الوعود... كان يقول لي إننا سنتزوج..» وبدأت بالبكاء ثانية..

«زينة.. اهدئي أرجوك.... من السهل على الرجل أن يَعِد.. يبني لكِ جبالًا من الوعود.. يأخذك من أرضكِ إلى سماه فحسب بكلمات.. مجرد كلمات ليس لها أي أساس ثم يوقعك على وجهك بالكلمات نفسها.. هم هكذا..».

«كاذب... خائن....».

«زينة.. أعلم أنك ترين الآن أنه من الصعب عليّ أن أستطيع أو أن أفهم أو أن أشعر بالذي تشعرين به.. لكنني أستطيع.. صدقيني.. كنت قد مررت بالذي تمرين به الآن، نفسه، لقد أحببتِه عدة أشهر، أما أنا فأحببته أعوامًا طويلة.. وجرحني بالطريقة نفسها..».

«كيف استطعت التحمل يا ليلى..؟!».

«تبدو لك الآن أن الحياة قد انتهت.. سوداء، لا ترين فيها أي ضوء، تشعرين بأنك قد فقدت مصدر الحياة الذي كنت تتغذين منه وأنك على وشك الذبول أو الموت..».

بين شهقات: «نعم..».

«من فعل بك هذا لا يستحق منك أن تبكي لأجله.. لو كان قد أحبك..

فلن يجرحك بهذه الطريقة صدقيني.. أحبي نفسك أكثر، قوّيها وساعديها لتتجاوز هذا الأمر».

«لا أستطيع.. أحببته يا ليلى».

«اسمعيني يا حبيبتي، أعرف أنك مجروحة الآن، لكن هذا كلّه سيزول قريبًا صدقيني.. أعرف أنه من الصعب أن تصدقي أحدهم حين يقول لكِ إنني أشعر بما تشعرين.. لكنني بالفعل أعرف بما تشعرين الآن، أعرف إحساسك بالخذلان وأنك معدومة الفائدة.. كنت في مكانك يومًا ما، في موقفك الآن نفسه.. شعرت بأن حياتي لا يمكن أن ترى النور، تركني حتى من دون أن يقدم إليَّ أي تفسير وكأنني صفحة قديمة متسخة في حياته وقَلَبها.. لم يضع حسابًا لكل الأيام التي كانت بيننا ولا الوعود التي بناها لي عن حياتنا المستقبلية.. لكنني بعد ذلك كلّه، تجاوزت الأمر كما ترين أمامك الآن.. تركت كل ما كان ورائي لأرحل إلى مكانٍ جديد، ومعي طفلة تملأ حياتي وصديقة أعدّها أكثر من أخت...».

حين رأيتها هدأت وبدأت تستمع إلى ما أقوله، أكملت:

«إن الحياة اختبارات يا زينة.. تختبرك لترى ما إذا كنت ستنجحين أم لا.. اختبرتكِ في السابق عدة مرات.. لكنكِ عدت ووقعتِ في الفخ نفسه».

«كان ذلك مختلفًا يا ليلى...».

«لا لم يكن مختلفًا.. كنت على علاقة بأحدهم وكادت الأمور تفلت

من يديك ويفضحك لولا ستر الله عليكِ، أليس كذلك..؟!».

ظلّت زينة صامتة لا تتكلم..

كانت زينة طفلة وحيدة، توفيت أمها وهي في سن صغيرة فلم تجد من يوجّهها إلى الطريق الصواب.. لطالما حكت لي عن والدها وسهراته في المنزل طوال فترة طفولتها وسني مراهقتها.. وكلما كان والدها يتزوج امرأة كانت تقسو عليها كثيرًا، فكبرت زينة وحيدة؛ بلا أم، ولا أخ، ولا أخت، مع أب مغيَّب وزوجة أب مختلفة كل عدة أشهر..

«لا تقولي في كل مرة إن الأمر مختلف حتى تبرري لنفسك أخطاءك.. الخطأ هو نفسه، وأنت إنسانة متعلمة وعاقلة.. أرجوك تعلّمي من أخطائك وراجعي تصرفاتك، لو كنت تريدين أن تحبي وتتزوجي؛ فالزواج ليس بالذي تفعلينه، لو كنت أنا رجلًا لما أردت أن أتزوج فتاة تكلمني طوال اليوم من دون توقف، ما الجديد الذي سأحصل عليه من الزواج بها؟! إذ إنني أريد أن أرتبط بإنسانة لا أعرف عنها شيئًا.. إنسانة كاللؤلؤة داخل الصدفة.. ليست كقطعة الحلوى التي تجمّع عليها الذباب..».

وبدأت زينة بالبكاء من جديد، كنت أعرف أنني أجرحها بكلامي هذا.. لكنني كنت متعمدة.. لم أكن أريد مراعاة مشاعرها بعدما فعلت.. كنت أريد أن أكون لها الصديقة الحقيقية في أصعب اللحظات، أربيها من جديد لو استطعت.. أعلّمها شيئًا جديدًا لم تجد من يعلّمها إياه.. أعرف أنها ستشكرني يومًا ما، ربما ليس

قريبًا ولكن في المستقبل بكل تأكيد..

بدأت الشكوك تملؤني، وخوفي عليه تملّكني، والحزن من شوقي إليه يطبق على أنفاسي، سألت عنه خالي، وكل من أعرف أن لهم صلة به، ذهبت إلى بيته لأسأل عنه والده لعله يفيدني بشيء، فقابلتني زوجة أبيه. لم أكن أريد أن أراها فلم أكن أحبها، لم أكن وحدي، فكل من في حيّنا لم يكن يطيقها؛ امرأة تجلب معها الشر حيث تذهب، تفسد العلاقات بين الناس، تتنقل بين البيوت لتجمع الأخبار وتستخدمها في خراب أهلها؛ فلم يبقَ بيت ولا عائلة إلا حصلت لها مشكلة بسببها.. لطالما خشيتها، وكم فرحت حين رفضت أن تحضر يوم خطوبتنا، فأينما تذهب تجر وراءها النحس والكآبة، وكأنهما ظلها الذي لا يفارقها.. كانت تكره يوسف، وتكره له الخير كان ما كان، كل ما كان يهمها أولادها فحسب، حاولت التخلص منه بأي طريقة، توقعه بالمشكلات التي لا دخل له فيها.. تتشاجر معه لأتفه الأسباب، كانت تملأ رأس والده بمختلف الأفكار السيئة عنه؛ فتسببت بفجوة كبيرة بين يوسف وأبيه وما زالت مستمرةً حتى الآن.. وبسببها فقط ترك يوسف منزل والده في الثانية التي استطاع فيها ذلك.. وحين أراد الارتباط بي، رفَضَت من دون سبب، لمجرد أنه أراد ذلك، كانت تريده أن يتزوج ابنة أختها على الرغم من كرهها

له، طمعًا فيه وفي الخير الذي كان يفتح أبوابه ليوسف أينما ذهب.. ولكن كان من المستحيل أن يرتبط يوسف بأي شخص من طرفها.. فحاولت بكل جهدها بث سُمّها في أذنَي والد يوسف لتُغير رأيه حتى كاد يرفض ارتباطنا، وبعد محاولات إقناع طويلة اختلطت برجاء ثمّ تحولت تهديدات، تراجع والد يوسف عن رفضه، لكنها لم تيأس..

كان الجوّ حارًا جدًا لكنها أبقتني خارج البيت ولم تطلب مني الدخول.. كانت تكلمني من خلف الباب وكأنني متسولة أطلب منها المساعدة.. قالت لي إن يوسف ووالده لم يعودا وإن لديهما عملًا يحتاجان أن ينهياه قبل عودتهما لكنهما يتصلان بها، ويجب علي أن أعود إلى البيت ولا أفكر في الموضوع.. هما بخير ويجب عليَّ ألا أقلق.. كانت تكلمني بنبرة استهزائية يملؤها الخبث وكأنني طفلة صغيرة تريد أن تُسكتها بأي طريقة، وتبتسم لي كالحية السامة فشعرت بأن تحت رأسها مخططًا خبيثًا من مخططاتها الشريرة، ابتعدت عن منزلها، مشيت طويلًا تحت حرارة الشمس الحارقة والأفكار تتلاطم أمامي الواحدة تلوَ الأخرى، لم أستطع تفسير ما يحدث، إذا كان يوسف بخير فلِمَ لم يتصل بي؟! صحيح أنه طلب مني الصبر والانتظار، لكنه وعدني بأنه سيكلمني يوميًا ليطمئن إليّ، أما الآن فلا شيء يصل إليّ منه.. ولِمَ كانت تبتسم لي تلك المرأة بتلك الطريقة وكأنها تسخر مني؟! هل تعرف أين هما وماذا يفعلان؟! هل كذب

عليَّ يوسف؟! كل تلك الأفكار كانت تصفعني يمينًا ويسارًا بيدها الكبيرة حتى كادت تطرحني أرضًا قبل أن أصل إلى المنزل، اختلطت قطرات العرق على وجهي بالدموع التي كانت تنزل على خدَّيّ فكونت قطرات مالحة وجدت طريقها إلى شفتيّ فأتذوق طعمها وتزيد حسرتي على نفسي.. عُدت إلى المنزل من دون أن أُكلم أحدًا، ارتميت على سريري وبقيت أبكي حتى نمت من دون أن أشعر...

استيقظت في فجر اليوم التالي لأصلّي وأقرأ آيات من سورة يوسف فهي من السور التي تُقرأ في وقت الشدائد وتبث في نفس الإنسان الصبر على المحن، في ذلك اليوم كان للسورة أثر غير عادي عليّ.. شعرت بشعور سيدنا يعقوب حين فَقَد فلذة كبده يوسف، شعرت بحرقة قلبه وهو يقول ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وكيف أنه ظلّ ينتظر عودته على الرغم من أن الجميع قال له إنه مات، أكملت قراءة الآيات حتى تبللت صفحات مصحفي بدموعي المنهمرة.. لم يشف جرح يعقوب حتى ابيضّت عيناه من الحزن.. تمامًا كما كان شعوري من شدة بكائي وانهمار دموعي.. دعوت الله كما دعى يعقوب وشكوته همي، هدأت حين قرأت ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ عسى ربي أن يعيده إليّ كما أعاد يوسف إلى يعقوب

لم يتصل في اليوم التالي، ولا الذي بعده، ومضى قرابة شهر من

دون أي أخبار عنهما.. اقترب موعد الزفاف، الموعد الذي حدده يوسف مع أبي، اليوم الذي كنت أعدّ الساعات والدقائق لألبس فيه الفستان الأبيض، هدية صديقتي نورة، المعلّق في خزانتي لأنظر إليه كلّما فتحت عينيّ وقبل أن أغمضهما في كل ليلة.. هل سألبسه أم سيبقى ديكورًا في الخزانة؟!..

بقيت أنتظر وأنتظر قرابة شهر.. كان أطول شهر في حياتي.. كنت في حالة مزرية، لا أخرج من المنزل، حتى إنني لم أكن أمشط شعري ولا أبدل ملابسي، حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم.. أتذكر وجه أبي يومها، أتذكر صراخه، كنت في غرفتي وصوت أبي يصل إليّ من المجلس.. سمعت اسم يوسف فنهضت وذهبت إلى هناك على أطراف أصابعي لأسمع ما يقولون، كانت أمي في الداخل، وخالي، لم أكن أعلم لِمَ كانوا مجتمعين من دوني، بقيت خلف الباب أستمع من دون أن يراني أحد، صرخ أبي: "إذا لم يكن يريدها فليأتِ كالرجل ويطلقها.."، لم أستوعب ما سمعت، من الذي يجب أن يطلق.. يوسف؟!.. يطلق من؟!! أنا؟!.. "كان في حسبة ابني لكن هذا يكفي، أنا لا أحب أن يتلاعب أحد بابنتي هكذا"... "اذهب إليه يا عمر وقل له ليس عندي بنات للزواج.. فليأتِ ويطلقها.. وليذهب ليتزوج الفتاة التي يريدها".

كدت أقع من شدة الصدمة، لم يعد في استطاعة قدمَيّ أن تحملاني، شعرت بالدماء تغلي في عروقي، لماذا؟! ما الذي حدث؟! ما الذي تغير؟! هل أحب واحدة أخرى؟!.. لم أستطع

التنفس، لم أصدق ما سمعت، تمنيت لو أنني لم أسمع ما سمعت، كذَّبت أذنيّ وحبست غضبي في داخلي وتمالكت نفسي ودخلت المجلس، كانت أمي تجلس في طرف المجلس ووجهها كأنها فقدت غاليًا في حادث مفاجئ، ووجه أبي أحمر كالجمر من شدة الغضب والصُراخ، وخالي يجلس إلى جانب أمي لا يتكلم.

"ما الذي حدث؟! أين هو يوسف؟!" أخرجت الكلمات بصعوبة من حنجرتي وصوتي لا يكاد يسمع... نظر إليّ أبي وعاد لون وجهه طبيعيًا: "إنه بخير يا ليلى، لكنه لا يستحقك.. سمعنا أنه ذهب ويريد أن يتقدم لخطبة فتاة أخرى من أهلها... لا ندري ما الصحيح وما الكذب، لكنني غاضب منه أشد الغضب لاختفائه وعدم وضوحه معي.."

كانت كلماته تصل إلى أذنيّ كالصدى، بقيت متجمدة لا أتحرك ولا أتكلم، لم أعلّق على ما سمعت، كنت كالميت الحي، شعرت بألم في صدري، اقترب مني أبي ووضع يده على كتفي وقال: "يا ابنتي؛ من الخير أننا اكتشفناه قبل أن تقع الفأس في الرأس.. ما زلنا على البر، وأنتِ ما زلت صغيرة.. أقسم لكِ بإنني سأزوجك أفضل منه وسوف يندم على ما فعل".

أي فأسٍ يا أبي التي لم تقع في الرأس؛ فقد كان الخبر كالفؤوس التي تساقطت فوق رأسي تهشّمه الواحدة تلو الأخرى..؟! "ما الذي فعله يا أبي، انتظر لنسمع منه قبل أن نحكم، أرجوك يا أبي اهدأ قليلًا".

"حذرته من أن والده سيورطه في مشكلات كثيرة، سألته أن يتوخى الحذر.. لا أدري ما الورطة التي قد أوقع نفسه فيها الآن.. لكنه لم يأتِ يا ليلى، لم يأتِ ليكلمني، أتصل به ولا يرد، ويخبرني أن كل شيء على ما يرام، كيف على ما يرام وهو ليس هنا، والزواج موعده بعد أقل من أسبوعين؟! يوسف ليس واضحًا معي.. ولا معك، ولا مع أي منا... هكذا هو حين يدخل أبوه في الموضوع، وهناك شائعات عنه لا تعجبني".

"ما دخل والده الآن يا أبي؟! ومن الفتاة التي سمعت أنه سيتزوجها؟!.. ماذا تقول أنا لا أفهم شيئًا؟!".. تمالكت نفسي حتى لا أبكي أمامهم، وجلست حتى أستطيع استيعاب ما يمكن استيعابه، أجابني خالي: "يا ليلى؛ لا أدري ما بال يوسف، حتى أنا قد تغير معي، ما عرفته أن والده ورّطه في ديون على الرغم من تحذيري الشديد له، لكنه لم يسمعني، دعي أباك يتصرف.. لا شيء ممّا يفعله يوسف صواب الآن.. انجراره خلف أبيه ومشروعاته.. سيسقطه في الهاوية.. وأظن أن لاختفائه دخلًا في هذه المسألة".

"ومن الفتاة؟! هل قام بخطبة فتاة أخرى؟!".. باستهتار قال أبي: "سمعت من أحد معارفي أنه ووالده ذهبا إلى بيت رجل ثري في منطقة أخرى لا ندري لماذا، ولدى الرجل فتاة، نظن أنه تقدّم ليتزوج ابنة ذلك التاجر المعروف هناك.. لكنني أقسم بربي أن أجعله يندم.. حتى وإن كان ذلك الخبر خطأ، لا أحد

يفعل بابنتي هكذا وينجو مني.. سأرد اعتبارك يا ابنتي".

كان هم أمي وأبي أن يردّا اعتباري، وظنّا أنه بزواج آخر ستحل المشكلة، وكأن المشكلة كانت بتبديل رجل برجلٍ آخر.. لم أستطع احتمال ما يقولان وكيف كان تفكيرهما في المشكلة.. كنت مازلت أنتظر أن يعود يوسف ويفسر ما سمعناه، كنت على أمل أن يعود ويكذبهما ويقول لهما إنه يحبني ومن المستحيل أن يفكر في غيري وكل ما سمعناه كان شائعات كاذبة من أناس حاقدة، لم أستطع أن آكل أيامًا حتى خسرت أكثر من عشرة كيلوغرامات من وزني، لم أستطع رؤية أي من صديقاتي، لم أكن أريد مقابلة أحد كيلا يُفتح الموضوع أمامي، لم يعد لدَيّ أي قوة لأتكلم حتى كنت طريحة الفراش أيامًا لا آكل ولا أشرب ولا أتكلم..

جاء يوسف مع والده إلى بيتنا بعد رحلته المريبة، لا أنسى ذلك الحوار.. كنت أستمع إلى الكلام بينهم من خلف باب مجلسنا، أسمع أبي يسأل ويوسف يجيب، ولكن لم تكن الإجابات كافية:

"يا عمي اهدأ قليلًا، دعني أتكلم".

"ما الذي حدث؟! تكلم، أسمعك.. هل تستطيع الزواج الآن؟!"..

"أريدك أن تمهلني بعض الوقت.. كي...".

"كي ماذا....؟؟؟؟! لتختفي ثانية ثم تقول إنك تحتاج مزيدًا من الوقت.. زوجتك ابنتي منذ سنة، إن كنت لا تستطيع الزواج، لِمَ

عقدت قرانك عليها؟!.. لِمَ تجعل مصيرها مرتبطًا بمصيرك الذي من الواضح أنك مستهتر به؟!.. فلتعطِها فرصتها لتبحث عن مصيرها مع غيرك يا أخي..!"

"يا عمي أنا أحب ابنتك ولا أريد غيرها زوجة لي، لكن هناك كثيرًا من الأمور حدثت لي ولم أعد قادرًا على الزواج الآن وفتحِ بيت خاصّ.. أحتاج مزيدًا من الوقت".

"لقد حسبتك ابنًا لي، لكنك خيبت ظني بك، طلّق ابنتي يا يوسف حتى تعيد ترتيب حياتك، ابنتي ليس فيها عيب حتى تبقيها في انتظارك، من يرد الزواج فليتزوج، وإلا فلا يلعب ببنات الناس هكذا".

"ماذا تقول يا عم، كيف لي أن أطلّقها، لا أستطيع، حسنًا؛ نادِها، أريد أن أسمع الكلام من ليلى الآن".

"لك ما تريد.. اذهب يا عمر ونادِها" جاءني خالي ووجدني أمام الباب فعرف أنني سمعت ما قيل في الداخل.. دخلت المجلس ووقفت وجهًا لوجه أمام يوسف... التقت عيناي بعينيه وكادت عيناي تدمعان رغمًا عني، فنظرت بعيدًا حيث يجلس أبي غاضبًا يهزّ إحدى رجليه من شدة غضبه..

"ليلى؛ أبوك يريدني أن أطلّقك.. وأنا الآن أسألك.. أنا لا أملك شيئًا، لكنني أريدك معي، تعالي معي يا ليلى وسنتدبر أمرنا معًا وما يحصل لي يحصل لكِ"...

كان السؤال أكبر من أن أجيب عنه.. كيف أذهب معه؟؟ وأين أعيش؟ في الطرقات؟؟ على الأرصفة؟! أي قرار الذي أقرره في هذه الثانية؟! أرى غضب أبي، وغضب أبي يوسف، وانكسار يوسف، لا أستطيع ترك بيت أبي بهذه الطريقة، وكأنني أهرب، حتى ولو كانت الطريقة الوحيدة التي ستضمن بقائي مع يوسف.

نظرت إلى يوسف وهززت رأسي بالرفض، نظرت إليه وقد بدا وجهه كالزجاج الذي تهشّم أمامي.. لم يتوقع ردي، نهض لحظتها.. ونهض أبوه معه بعدما ثارا غضبًا: "قلت لك لا تتزوج منهم فلم تسمعني.. هذه هي التي قلتَ لي إنها تريدك.. تراجعت أمام أبيها.. لقد أُهنتُ بما يكفي في هذا البيت.. طلّقها وانهِ هذا الأمر لنلتفت إلى مصالحنا".

ثار أبي وبدأ الاثنان برمي مختلف الشتائم بعضهما على بعض، حتى انتهى الأمر بأبي أن طردهما من بيتنا وتواعدوا على اللقاء في المحكمة.

هكذا كان أبي دائمًا ينفعل بسرعة، ويشتعل غضبًا بسرعة فتنقطع جميع قنوات الاتصال بينه وبين من أمامه، يثور إذا تعدى أحد على عائلته ولا يسمح بأن يُجرح أحد منا ولو حتى بالخطأ، لم يعطِ نفسه فرصة لأن يسمع قصة يوسف، ولكن في الواقع لم يكن عند يوسف أي قصة ليحكيها، عدم وضوحه مع أبي وأسباب اختفائه، وما الذي حوّله من إنسان مقتدر إلى شخص لا يملك بيتًا يؤويه.. ولِمَ لا يريد إخبارنا وجعلنا نخترع

قصصًا ونأتي بالأسباب.. وإن كان مجبورًا، ما الذي أجبره ولماذا لم يفسر لأبي ما حدث، لم يجِبنا يوسف، ولم نعرف ما حدث إلا ممّن حولنا، أن يوسف عقد قرانه على ليلى ابنة عبدالله، ثم تركها وطلّقها.. وتزايدت الأقاويل، وتغيرت القصص من امرأة إلى أخرى، ومن عائلة إلى أخرى، فالتي عابتني وقالت إن أبي أجبر يوسف ليتزوجني، والتي قالت إنني لم أكن أصلح له منذ البداية وهو يستحق أفضل مني.. والتي قالت يوسف من حقه أن يتزوج بدل الواحدة أربعًا فلِمَ الاستياء و... و... و...وأجبر أبي يوسف وأباه على الحضور إلى المحكمة لإتمام الطلاق، على الرغم من أن يوسف لم يكن يريد طلاقًا، لكن انقياده خلف أبيه أعماه، لم أكن أنا ولا أبي نرى ذلك برًّا بالوالدين، أو احترامًا لهما، بل انعدام للشخصية، كم صغر يوسف في عينَي أبي بعد ما فعل الذي فعله وكيف تخلى عني بسهولة.

في يوم الطلاق، أخذني أبي إلى المحكمة، لم أكن أقوى على المشي لكنني أجبرت نفسي على ذلك حتى أحفظ ماء وجهي ولا يحسب يوسف أنني منهارة لفراقه، وقفت أمام القاضي ولم أرفع غطاء وجهي حتى لا يرى أحد وجهي شاحبًا وكأنه لم يعد به دماء تجري. لمحت يوسف من بعيد ووجهه حزين، لكنه لم يحاول حتى النظر إليَّ، شعرت كم كان جبانًا ليفعل ما يؤمر، كان يقف خلف أبيه كالطفل ذي الأربعة أعوام، ينظر إلى عقب رجليه، انسحب انسحاب الخائف الجبان من دون أي تفسير ولا

حتى اعتذار.. وقّع ورقة طلاقي، ووقعت تحت اسمه.. وأعطيته ظهري وخرجت من القاعة لأنني شعرت بأنني على وشك أن يغمى عليّ، رأيت نظرة الغضب على وجه خالي، ظلّ ممسكًا بي وبعيدًا من يوسف، تساءلت ما إذا كانت تلك الورقة هي ورقة انتهاء صداقتهما هما أيضًا..

في طريق عودتنا الذي شعرت بأنه بلا نهاية، كنت أشعر بحرارة في صدري أشد وأحر من حرارة الشمس التي كانت تضربنا من كل جهات سيارة أبي.. لم تتلفّظ شفتاي بأي كلمة طوال الطريق، لكن داخل رأسي كانت حرب الأفكار قد اندلعت، الخصم الأول مع يوسف، يعذره وينتظر عودته ومتأكد من أن يوسف يملك تفسيرًا لما فعل، وأنه سيعود يومًا ما وسينتهي كل هذا قريبًا، والخصم الآخر كان قد أعماه كرهه ليوسف وما فعل بي، كره جبن يوسف وانسحابه بهذه الطريقة الخائنة، كره خيانته وخذلانه وتركه لي بتلك السهولة بعد وعود الحب التي أعماني بها.. لم يكن هناك نتيجة لتلك الحرب؛ فكلا الخصمين قوي وعنده حجة واضحة..

دخل أبي غرفتي معي، لم أكن أريد أن أنظر إليه فأمسك بذقني ورفع رأسي لأنظر إليه، مسح دموعي عن خديّ وقبّلني على جبيني.. وقال لي: "ارفعي رأسك يا ابنتي، أنتِ جوهرة، وهو لا يستحقك، خاننا جميعًا، حسبته كابني وفعل ما فعل من دون أي سبب، أمنته عليكِ وجرحكِ من دون أي ذنب لكِ، لا أريد أن

أراكِ ضعيفة، أنت ابنتي الكبرى، أول فرحتي أنا وأمك، أعدك بأن أعوضك.. سيأتي من يستحقك".

بثَّ كلام أبي فيَّ القوة لحظتها.. ولكن كان كل ما في رأسي أنني طُلِّقت من يوسف، لم أعد له، لم يعد قلبي يحتمل ما أشعر به، كنت أشعر بأنني وسط دوامة سوداء كبيرة لا أستطيع الخروج منها، تسحبني يمينًا ويسارًا من دون أي مقاومة مني؛ فأنا الآن بلا مستقبل فلن أستطيع دخول الجامعة، ولا زوج، ولا حياة جديدة تنتظرني.. فقدت كل شيء في غمضة عين.. كتمت في داخلي كل ما شعرت به، تألمت بصمت، وبكيت بصمت حتى جفت عيناي فلم يبقَ فيها دموع.. كان من حولي يعاملني وكأن يوسف مات، لكن الواقع أنه لو كان مات بالفعل لكان أهون عليَّ من أن أكون فقدته وهو حي يرزق.. كبرت وأنا أحبه فنسيت طفولتي.. وأكبر أحلامي كان كلمة منه فلا أذكر أيام مراهقتي إلا به.. عشت في حالة انقطاع عمن حولي في غرفتي.. أسمع صوت فيروز الدافئ وهي تقول ما في داخلي وتغني: "بتزَكر شو حكيو عَليّ.. لما نَطَرت وإنتَ نسيت.. وصار الشتي ينزل عليّ.. وإجا الصيف وإنت ما جيت.. يا سنينا لي رَحتِ ارجعيلي.. ارجعيلي شي مرة ارجعيلي.. وانسيني ع باب الطفولة.. تا اركض بشمس الطرقات" فتنزل دموعي من دون توقف..

وبعد أسابيع من الحالة التي كنت فيها، بدأت أتمالك نفسي، لم تتركني صديقاتي يومًا واحدًا طوال أيام انهياري، على الرغم من

عصبيتي وإرغامي إياهنّ على تركي وحدي، لم يتركنني وبقين إلى جانبي حتى استطعت أن أخرج من الحالة التي كنت فيها.. أحضرتُ صندوقًا كبيرًا وجمعت فيه كل ما جمعني بيوسف، البوم الصور الذي جمعت به كل صورة وكل ورقة وكل وردة منه، رسائله إليّ، هداياه وكل ما له أي صلة به، وأخذتها لأرمي بها حتى أستطيع أن أنسى ولا يذكرني به شيء.. وقبل أن أقدم على تلك الخطوة، رجتني مها صديقتي أن أعطيها الصندوق وهي تتصرف به على طريقتها، فأنا وكما كانت تقول، لا أفكر بشكل سليم في حالتي تلك.. كان الترفيه الوحيد الذي أحصل عليه هو حين أذهب إلى بيت إحدى صديقاتي ونقضي بعض الوقت سويًا.. لم يذكروا يوسف أمامي قط، بل كنا نتكلم في أتفه الموضوعات عن الأزياء والموضة والمدرسة والمدرّسات.. كل منهن كانت تتكلم عن أي جامعة ستذهب، مها وصفاء ستدرسان في الخارج في حين أن نورة ستدرس في جامعة محلية.. أشرنَ عليَّ أن أحاول أن أجد وظيفة، أي وظيفة بسيطة لتشغل وقت فراغي من ناحية.. وأستطيع مساعدة أهلي من ناحية أخرى، وربما أدخل جامعة خاصة، وأكمل تعليمي وأضع ما حصل أمامي وأمضي في حياتي.. كان الكلام سهلًا بالنسبة إليهن، ولكن لم يكن في استطاعتي أن أنسى.. وعدتهن بأن أفكر في الموضوع وأستشير أهلي..

قررت أن نخرج أنا وزينة ومريم في ذلك اليوم حتى تغير زينة نفسيتها، ذهبنا إلى المركز التجاري لتناول الغداء، ثم أخذنا مريم إلى الألعاب، بينما بقيت أنا وزينة نشرب القهوة ونشاهدها من بعد..

«كبرت مريم كثيرًا يا ليلى.. كم أتمنى أن أرزق بفتاة بجمالها».

شعرت كم كانت زينة متألمة.. حاولت أن أغير مزاجها.

«ما زلت صغيرة.. سترزقين بسبع مثلها، يفقدونك صوابك وتشدين شعرك منهن.. أستطيع تخيلك بسهولة».

ضحكت أخيرًا.. وأنهينا اليوم بجلسة هادئة للعناية بأظفارنا نحن الثلاث وعادت كل منا إلى منزلها.. ارتمت زينة بين أحضاني وقالت:

«أنت أحلى أخت في الدنيا يا ليلى..».

«وأنت أيضًا يا حبيبتي، سأراك غدًا، اهتمي بنفسك وسلّمي على جدتك كثيرًا».

في صباح اليوم التالي، أفقت من نومي ووجدت مكالمة فائتة من أختي الصغرى سميرة، من المؤكد أنها ستطلب مني أن أزورهم فقد مرَّ وقت طويل لم أزرهم ولم أرَ أمي، انتهيت من صلاتي، وساعدت مريم على تجهيز نفسها للمدرسة، وفي أثناء تجهيزي للإفطار، اتصلت بسميرة، لم تعجبني نبرة صوتها فسألتها:

«سميرة ما الأمر؟! هل أمي بخير؟!».

«نعم يا ليلى، أريد أن أستشيرك في موضوع، هل أستطيع رؤيتك اليوم؟!».

«بالطبع يا سميرة، سأمرّ اليوم بعد الدوام أنا ومريم..».

«حسنًا؛ سأكون في الانتظار لا تتأخري».

«سميرة، ما الأمر؟! لقد أقلقتِني».

«لا تقلقي، موضوع بسيط، سأخبرك حين تأتين».

بقيت مشوشة البال طوال يومي في العمل؛ فصوت سميرة كان يملؤه الحزن والحيرة، لا أدري ما بها وما الذي تريد أن تستشيرني به، لعله خير.. بقيت أرددها طوال اليوم.

سميرة أختي كانت الأهدأ بيننا، هادئة إلى درجة أنك قد تنسى أنها موجودة. دائمًا تراها غارقة في قراءة كتابٍ ما في أي وقت، لم يكن لديها كثير من الأصدقاء، تقضي معظم وقتها في القراءة، كانت أكثر تفوقًا مني في الدراسة وانتهى بها المطاف بنسبة مرتفعة في الثانوية العامة في نهاية العام المدرسي، كم فرحت بها وكم شعرت بالفخر حين رأيتها وهي تضع قبعة التخرج وتتسلم الشهادة تكريمًا من مديرة المدرسة لتفوقها.. رأيتها تحقق إنجازات عظيمة، تلك التي لم أكن أحلم بتحقيقها.. تلك التي لم أفكر فيها لأن أفكارًا أخرى لم تفسح المجال لها.

ويا للمفاجأة؛ قررت سميرة ألا تلتحق بأي جامعة وتصنع أعذارًا لنفسها بأنها يجب أن تبقى مع أمي لتعاونها لأن عائشة ودانة ما

زالتا صغيرتين، ولكن في حقيقة الأمر كان إعادة لقصتي التعِسة فهي تنتظر الزوج والعائلة والأطفال، وكأن الدراسة والزواج شيئان لا يمكن أن يتحققا لشخص واحد.. كم حاولت أن أقنع أمي بألا تنقل هذه الفكرة إلى أخواتي الأصغر وأنهم يجب أن يسعوا قدمًا لتحقيق أهداف أخرى في الحياة بدلًا من الجلوس ووضع اليد على الخد في انتظار الزوج..

أخذت مريم من الروضة وكانت في قمة السعادة لأنها ستذهب لترى جدتها وخالاتها فقد اشتاقت إليهن كثيرًا.. تركت عائلتي حيّنا القديم البعيد إلى مكان أقرب في المدينة التي أسكنها، ولم تمضِ أقل من نصف الساعة حتى أصبحت أنا ومريم في بيت أمي.. استقبلتنا أمي بالأحضان، كم أحب حضن أمي فهو المكان الوحيد الذي يشعرني بأنني طفلة من جديد، المكان الوحيد الذي أشعر فيه بالأمان والاطمئنان، لم أكبر في هذا البيت ولم تحتضنني حجراته لتعيدني إلى أيام طفولتي، لكن وجودي مع أمي وإخوتي يرجعني إلى أيام العائلة؛ الأيام الدافئة، البسيطة وغير المتكلفة.. وكعادة أمي مدَّت لنا مائدة طويلة فيها جميع الأصناف التي أحبها أنا ومريم، كانت بالطبع أكثر ممّا يستطيع أي إنسان أن يأكل، وإذا تجرأ أحدنا على أن يقول «شبعت»، كان هذا يعني أنه فتح على نفسه بابًا من التوبيخ والعتاب الذي لن يقفل..

«كيف حالك يا ابنتي.. اشتقت لك يا حبيبتي..؟!».

«أنا بخير يا أمي... أنتم ما أخباركم؟!.. ما الجديد؟!.. كيف حال

أبي وعلي وبقية إخوتي؟!».

تغير وجه أمي وعلمت أنه لموضوع سميرة نفسه، بقيت صامتة حتى أسمع الموضوع منهم، شربت الشاي وانتعشت كل جوارحي؛ فالشاي في بيت أمي حكاية يجب أن تتغنى بها كل حكايات الحب، حاولت قدر الإمكان أن أحضره بالطريقة نفسها ولكن من دون فائدة؛ فطعمه لا يشكله عدد ملاعق السكر أو كم من الوقت تُرك ليغلي، بل حب وحنان أمي وهي تصنعه، طعم الطفولة في حضن العائلة وأشياء أخرى لا أستطيع تفسيرها..

دخلت مع سميرة الغرفة وفاتحتني في الموضوع..

«هناك أحد تقدم لخطبتي..».

قفزت من مكاني وكدت أطير من الفرحة؛ فكم انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، أخذت سميرة بين أحضاني وقبَّلتها، لكنها ظلت واقفة في مكانها من دون حراك ولا استجابة لأحضاني وقبلاتي، لم تكن أي معالم فرحة على وجهها ففوجئت جدًّا؛ فقد كان الزواج بالنسبة إلى سميرة هو الحلم المنتظر، على الرغم من كل محاولاتي لإقناعها بأن ليس بالضرورة أن يكون الزواج هو الحل لكل مشكلات الإنسان والسبب بالسعادة التامة، بل قد يكون العكس تمامًا، كنت أريدها أن تتعلم من تجربتي التي حصلت أمامها والتي كان الزواج والاختيار الخطأ الذي تسبب بقلب حياتي رأسًا على عقب...

«ما الأمر؟! لِمَ لستِ فرحة؟! «.

«لا أدري ماذا أقول لكِ يا ليلى.. أبي متحمس جدًّا لأنه رجل من طبقة مرموقة ماديًّا واجتماعيًّا».

«حسنًا.. وأين المشكلة في هذا؟! أخبريني يا سميرة».

«يكبرني بنحو خمسة عشر عامًا، متزوج قبلي، ومطلّق، ولديه أولاد يصغرونني ببضعة أعوام».

هدأ حماسي وغابت بسمتي.. جلست على طرف السرير وبقيت في مكاني ولم أتكلم، لم أعطِ أيَّ تعليق.. استرجعت ذكرياتي التي قادتني إلى أكبر غلطة ارتكبتها في حياتي والتي أرى أختي تقع فيها أمامي، ولكن لا يمكن، لن أسمح لهذا بأن يحصل..

«لا يا سميرة... لا....».

«ماذا أفعل يا ليلى؟!».

«عليك أن ترفضي وأن تلتحقي بالجامعة، هذا ما عليك أن تفعليه.. ما زلت صغيرة جدًّا على تجربة كهذه من الواضح جدًّا أن نهايتها ستكون فاشلة... فارق السن كبير جدًّا، ولماذا من الأساس تربطين نفسك بإنسان كبير، متزوج، وأنت ما زلت في عز شبابك، بل ما زلت طفلة...؟! كيف تفكر أمي وأبي بهذه الطريقة..؟!».

لم ألاحظ أن صوتي ارتفع وأسمع كل من في البيت.. وجاءت أمي ولحقها أبي.. وبدأت المشاجرة.

«دعي أختك تتخذ قراراها فأفضل شيء للفتاة أن تستقر في بيت زوجها، أي جامعة تتكلمين عنها؟! فلتكمل جامعة بعد الزواج».

«أنت يا أمي تعلمين أن هذا لن يحصل.. لِمَ تريدان أن تزوجاها شخصًا كهذا..؟! ألا يكفيكما ما حصل معي؟! لِمَ تريدان المأساة مرة أخرى..؟!».

«ما حصل معك لن يحصل معها؛ فالرجل مقتدر وسيؤمّن حياة كريمة».

«ليس كل شيء بالمال يا أمي، الرجل يكبرها بأكثر من خمسة عشر عامًا ويكاد أولاده يكونون في مثل سنها..».

«أي جامعة التي ستقبلني الآن يا ليلى؟! من المؤكد أن مواعيد التسجيل انتهت؛ فالسنة الجامعية على وشك البدء.. ما يعني أن هذه السنة ستضيع عليَّ ربما الزواج أنسب لي..».

«اسكتي يا سميرة، أرجوك، أنا لست ضد فكرة الزواج الصحيح، المتوافق، ولكن ليس بهذه الطريقة، أنا سأدبر موضوع الجامعة، أنت متفوقة، ونسبتك في الثانوية مرتفعة، حتى لو اضطررت إلى أن ألحقك بجامعة خاصة فسأفعل وأنا سأتدبر المصروفات.. ولكن ليس هذا الزواج.. انتظروني أرجوكم.. لا تمضِ في هذا الموضوع أرجوك يا أبي...».

غادرت المنزل وكلّي رجاء أنهم سمعوا ما قلته وأنهم لن يتصرفوا في هذا الموضوع حتى أدبر موضوع التحاق سميرة بالجامعة... كنت أعلم أن نية أبي أن يضمن لكل منا مستقبلًا مقبولًا وفي نظره أن هذا المستقبل لا يمكن تحقيقه إلا بزواج مناسب لأي فتاة.

لم يكن مرَّ على انفصالي من يوسف أكثر من شهرين، كنت أحاول أن أبدو طبيعية قدر الإمكان حين أكون مع أهلي، لكن دموعي ما زالت تنزل على مخدتي من دون إرادتي حين أرى وجه يوسف أمامي، وأتذكر خذلانه لي.. كنت أحاول أن استدرج خالي إلى أسباب يوسف، ولِمَ فعل ما فعل، لكنني علمت أنه افترق عنه هو الآخر فلم يخبره بما حصل.. قتلني الفضول ولكن لم يكن بيدي حيلة إلا تقبّل ما حصل؛ فبعدما وقَّع ورقة طلاقي من دون أن يقدم إليَّ أسبابًا، لم يعد لي أي صفة ولا الحق لأسأل أو أطلب الأسباب.

كنت أجلس في غرفتي أساعد أختي عايشة على واجبها المدرسي، دخلت علينا أمي وفهمت من وجهها أن لديها ما تقوله.. طلبت من أختي أن تتركنا وحدنا.. أخبرتني أن إحدى صديقاتها جاءت لزيارتنا، وأنها تعرف عائلة تبحث عن زوجة صالحة لابنهم، وأنها فكّرت بيّ في حينها ووصفتني لهم وأخبرتهم عن وضعي وكانوا مرحبين بالفكرة وأنهم سيأتون لخطبتي في نهاية الأسبوع.. بقيت أستمع إلى كلام أمي ولم أرد أن أقاطع حماسها وهي تعدد محاسن الرجل، لم تقل لي أيًا من صفاته، بل ما يملك، إن لديه منزله الخاص وسيكون لي وحدي، وأنه سيقدم إليّ ما أطلبه من مهر وجواهر وما إلى ذلك، لكنه سيأخذني لأعيش وهو ليس خارج حيِّنا بل خارج المدينة كلها؛ لأن بيته في المدينة المجاورة التي تبعد نحو ساعتين بالسيارة..

"سأعيش بعيدًا منكم؟؟!" قاطعت أمي.. سكتت قليلًا وكأنني قلت الشيء الذي كانت تريد أن تتفاداه، "يا ابنتي أنتِ تعلمين أنكِ الأقرب إليّ وإلى والدك، ويعز علي أن تبتعدي عنا، ولكن كل إنسان يأخذ نصيبه في الدنيا، لقد عانيتِ كثيرًا وربما يكون تعويض الله لكِ بهذا الزوج"، رأيت في عينيها حينها الأمل؛ فهيَ تتمنى لي السعادة ربما أكثر من تمنيها لنفسها، والاعتقادات التي في رأسها هي مقتنعة بها اقتناعًا تامًّا؛ فقد تربت هي هكذا.

ظلت أمي تلح عليَّ وتزيد في كلامها أن الرجل يعلم بوضعي أنني كنت مرتبطة بغيره وأنه موافق على ذلك، وأنه فرصة ويجب ألا تفوّت، وأنني لو رفضت فمن الجائز جدًّا ألا أجد أحدًا آخر يقبل بالزواج بي وقد توجت بلقب "المطلّقة"، أشعرني كلام أمي بأن الرجل يتفضَّل علي بموافقته على الزواج بي، وأنه الحل الأمثل لوضعي الذي يعدّ عيبًا في حق أي فتاة في مجتمعنا، وأنه كما "يقولون" رجل طيب الأخلاق على الرغم من أنني لم أستطع أن أعرف كثيرًا عنه من أمي غير أملاكه.

لم تدع لي أمي فرصة للتفكير قبل أن تستشير أبي في الموضوع، وهو الآخر وافق على الفور.. كانت موافقة أبي مبنية على أنه يريد أن يزوجني أحدًا أفضل من يوسف ليعيد اعتبار عائلتنا أمام يوسف وأبيه، وليثبت لهما أنه يمكن استبدالهما بسهولة.. لم أعرف ما الذي يجب أن أقوله، موافقتي على يوسف كانت مبنية على أساس واضح، كنت أعرفه حق المعرفة، أعرف من هو،

وكيف يفكر، أعرف وضعه وماذا يعمل، والأهم من ذلك كله، أعرف أنه يحبني وأنا أحبه، أما هذا الـ"مبارك"، فلا أعرفه، وكيف لي أن أوافق على أن أربط حياتي بشخص لا أعرفه، "ستعرفينه وتحبينه بعد الزواج" هكذا كانت تقول أمي، لا أدري بأي منطق كانت تفكر فقد أحببت يوسف أعوامًا ولم يشفَ جرحي بعد، كيف لي أن أعيد تشغيل قلبي وأملأه مشاعر جديدة تجاه إنسان جديد وهو مازال يئن من فراق يوسف، كنت أتمنى أن يطرأ أي طارئ يوقف هذا الأمر، أو أن يغير رأيه هذا الـ"مبارك" ولا يتم هذا الزواج، كنت أتألم وهم يمضون في موضوع الخطبة حتى وجدت نفسي كالتي تقف على حافة جبل؛ لا أستطيع التراجع فلا مجال خلفي، وأمامي هاوية لا أدري ما الذي ينتظرني أسفلها إذا وقعت..

كل شيء حولي بدأ بالدوران، وبدأت تجهيزات الفرح المنتظر، كان مبارك يكبرني بثلاث عشرة سنة، كنت في التاسعة عشرة، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وحين أبديت اعتراضي على أن فارق السن كبيرًا اندفع كل من حولي بالرد علي؛ فأبي قال: "لا يعيب الرجل إلا جيبه"، وأمي وإخوتي لمّحوا لي أن فارق السن بيني وبين يوسف لم يكن بالقليل ومع هذا كنت موافقة على الزواج منه ولم تكن تلك مشكلة بالنسبة إليَّ، فباءت محاولاتي بالرفض كلها بالفشل فاستسلمت وخضعت للأمر الواقع الذي فُرض عليّ، فلم يكن هناك مجال للتراجع.. لجأت إلى الله بألمي

وانكساري، بضعفي وقلة حيلتي، بأن يقدم إليّ كل خير، ودعوته أن يجعل في هذا الـ "مبارك" سعادتي وشفائي من جرح يوسف.

كان مبارك يملك من المال كثيرًا؛ فلم يكن لديه مشكلة في حجز قاعة كبيرة لحفل الزفاف، وأهداني ثلاثة أطقم من الذهب والألماس المرصَّع لا تكاد رقبتي تقوى على حمل الواحد منها، ناهيك عن الهدايا التي كان يهديها إلى أمي وأبي، وبهذا فقد اشترى رضاءهما، بل رضاء كل من حولي؛ فكل واحد كان يراه الشخص السخي الذي سيضمن لي الحياة الكريمة..

أما أنا فلم أستطع أن أشعر تجاهه بأي شيء، لا مشاعر، لا انجذاب، ولا حتى تقبُّل، لم أكترث لهداياه ولم تؤثر فيّ الكلمتان اللتان قالهما لي في يوم الخطبة: "مبارك يا زوجتي العزيزة"، كان بالنسبة إليَّ غريبًا لا أعرفه، كنت أعلم أنني لست أول واحدة تتزوج بهذه الطريقة التقليدية، ولكن من عاش ما عشته وخاض تجربتي الجميلة في الحب، لا يستطيع الزواج بهذه الطريقة العشوائية، لم أكن سعيدة بأنني سأتزوج في غضون أسابيع، نعم كانت أسابيع، لم تكفني حتى لأستوعب ما يحصل حولي.

وحصل ما حصل وتمَّ الزواج، كان أبي يقف سعيدًا وهو يستقبل المدعوين وفخورًا كل الفخر بالمصاهرة العظيمة، وزاده سعادة أنه لم يدعُ يوسف وأهله الذين لم نسمع عنهم شيئًا بعد الذي حصل، وأرى أمي بين المدعوات فرحة، تتلقى المباركات من صديقاتها وجميع نساء القرية، وأنا أجلس في آخر القاعة، ألبس

ثوبًا مرصعًا من رأسي إلى أخمص قدمَي، رفضتُ أن تهديني نورة الثوب الذي وعدتني به؛ فذلك الثوب كان يجب أن ألبسه في عرسي مع يوسف وليس هذا؛ فالظروف غير الظروف، والقلب غير القلب، ويوسف ليس هنا.. لم تفارقني الأفكار ولا الأسئلة: "ماذا لو لم يتركني يوسف؟! كم كانت ستكون سعادتي في هذا اليوم الذي انتظرته طويلًا.."

كنت أحاول رسم ابتسامة على وجهي بعد رجاء من المصورة التي لم تفارقني لحظة طوال الليلة السعيدة، وبعد رحيل المدعوين حان وقت الوداع، لم يكن يكفي أنني سأتزوج إنسانًا لا أعرفه، بل سأذهب للعيش في مكان بعيد غريب عني، أتذكر وداعي الحار لأمي وإخوتي في يوم عرسي الذي كان أشبه بعزائي، مع أن أحدًا لم يُرغمني على الزواج، لكنني بلحظة ضعف وضغط ممن حولي وافقت.. وسقطت من حافة الهاوية... لأجد نفسي في حجرة مغلقة مع رجل لا أعرفه هو الآن زوجي..

لم أستطع أن أتمالك نفسي من شدة خوفي، تركتني أمي وحدي ورحلت، لم أكن أقوى على الوقوف أكثر فجلست على حافة السرير وأنا أنظر إلى يديّ وأحاول أن أوقفهما عن الارتجاف ولكن من دون جدوى، كنت أشعر بثقل غريب في كل جسدي، كان الفستان كبيرًا جدًّا وثقيلًا جدًّا وضيقًا جدًّا لا يسمح لي حتى بأخذ نفس عميق.. كنت أشعر وكأنه سيغمى عليّ في أي لحظة.. شعرت بجسده يجلس على السرير.. يحاول أن يقترب

ليضع يده عليّ.. ابتعدت من دون أن أشعر، فتوقف هو، شعرت برغبة في البكاء، أردت أن أخرج من هذا الفستان وأغسل وجهي من الأصباغ وأدخل السرير لأبكي من دون أن يسمعني أحد..

"سأدعكِ تغيرين ملابسك.. سأكون في غرفة المعيشة لو احتجتِ شيئًا".

قالها وخرج، وكأن صخرة أزيحت عن صدري، نزعت الجواهر العملاقة، وخرجت من الفستان بأعجوبة، نظرت إلى وجهي في المرآة فلم أعرف نفسي.. تذكرت أنني لم أكترث حتى لأنظر إلى نفسي بعدما انتهت جارتنا من تجربة ألوان الطيف حول عيني وتحويل شعري من ناعم طويل إلى صخرة، بل جبل عملاق لا يتحرك فوق رأسي.. اغتسلت ولبست ملابس خفيفة مضحكة جهزتها لي أمي، تجعلني أشعر وكأنني لا ألبس شيئًا.. لم أستطع أن أخرج من الغرفة لأكون بهذا الشكل أمام رجل غريب، كنت أشعر بتعب شديد وكأنني كنت أركض طوال اليوم، لم أقاوم السرير فارتميت عليه وتغطيت بكل الشراشف الموجودة وحاولت أن أغمض عيني علّني أنهض غدًا وأستيقظ من هذا الكابوس.. بعد ساعات، أو دقائق، شعرت بجسده على السرير، خفت أن يقترب مني فتجمدت في مكاني حتى يظن أنني نائمة، فلم تمر الدقائق حتى سمعت شخيرًا عاليًا يكاد يسقط الثريا المعلقة فوق رأسنا، فبقيت أنظر إليها طوال الليل ولم أنم حتى طلع الفجر..

انتظرت حتى قبل أن تشرق الشمس، وذهبت إلى عملي وحتى قبل أن أشرب قهوتي، اتصلت بصفاء صديقتي القديمة، فقد عادت إلى مصر بعدما أنهينا الثانوية لتكمل دراستها الجامعية، وهي الآن تعمل في إحدى الجامعات المرموقة هناك.. كانت أملي الوحيد في حل موضوع سميرة أختي؛ فقد كانت تعمل في قسم التسجيل في الجامعة، وكان عندي أمل أنها الوحيدة التي في استطاعتها مساعدتي...

«صفاء كيف حالك.. وحال أهلك؟!.. اشتقت إليك..».

«ليلى!!!!! كيف الحال؟! الحمد لله كل شيء بخير».

«وأولادك، اشتقت إليهم، لم ترسلي إليَّ بصورهم منذ مدة».

«إنهم بخير، كبروا عن آخر مرة رأيناكم فيها، سنزوركم في الإجازة المقبلة بإذن الله».

«وسنكون في الانتظار، بيتي دائمًا مفتوح لكم يا صديقتي..».

«أخبريني كيف أنت وكيف الكتكوتة مريم؛ كبرت طبعًا وتزداد شبهًا بكِ كل يوم».

«إنها جميلة كأمها طبعًا».

«بالطبع ومن دون شك... صفاء.. كنت أريد أن أكلمك في موضوع مهم، أريد أن ألحق سميرة في كلية الطب عندكم في مصر.. أنت ما زلت تعملين في الجامعة أليس كذلك؟ فما رأيك؟».

«نعم بالطبع؛ لقد استغربت حين علمت منك أنها لم تلتحق بأي

جامعة حتى الآن».

«نعم وماذا بخصوص التسجيل، لقد فات موعده؟! هل تظنين أنه سيكون هناك مشكلة؟!»

«لا؛ أرسلي إليَّ بأوراقها كاملة، وسأهتم بالموضوع، لا تقلقي؛ درجاتها عالية وسأتابع معهم، أعرف كل من في قسم التسجيل».

«أشكرك يا صفاء، نعم الصديقة أنت».

«لا تقولي هذا يا ليلى، نحن عِشرة عمر.. وسميرة أختي وأكثر».

أغلقت السماعة وأنا في قمة سعادتي، لم تعدني صفاء بشيء إلا وأوفت بوعدها ما دام الموضوع في استطاعتها، لم أستطع إزالة الابتسامة العريضة من على وجهي وفي رأسي صورة أختي الصغرى تلبس معطف الأطباء وقد لقبت بالدكتورة سميرة..

كدت أقفز من مكاني حين وقع على مكتبي جبل من الملفات وخلفه كان المراسل القصير مصطفى الذي كنا نسميه عقلة الإصبع لصغر حجمه. كان مصطفى في مقام خادم لجمال، يلبي طلباته، يلحق به حيث ذهب، يتحرك خلفه وكأنه مربوط بحبل ويسحبه جمال معه أينما شاء.

«متأأأسف» بخوف، قال مصطفى، وجاء خلفه جمال بوجهه المنتفخ الأحمر وكرشه العملاق، يمسك بيده تفاحة ويقضم قضمة ويأكلها بصوت عالٍ، ليستفزني، لأفقد أعصابي، ثم يجد السبب ليعاقبني.. لكنه وبكل قرف واستهزاء وصوت مستفز قال:

«أريدها أن تجهز قبل أن تخرجي من هنا.. وأريد تقريرًا كاملًا عنها..»، نظرت إلى الملفات أمامي؛ إنها لعامين ماضيين، هل جنَّ هذا الرجل؟! هل يظنني خادمته؟! لم أستطع أن أخرج من حلقي غير كلمة:

«اليوم؟!».

«لا بعد سنة...! طبعًا اليوم وقبل نهاية الدوام، لا تخرجي إلا والتقرير على مكتبي، ربما هذا سيبعد الابتسامة الساذجة التي كانت على وجهك»، وأدار كرشه إلى الوراء وابتعد وركض خلفه عقلة الإصبع كظله.

كدت أنفجر غضبًا، لم أعد أحتمل أسلوبه القذر، كنت أريد أن أضرب أحدًا لكن كان الجميع كانوا مُتَخفّين داخل قوقعته لا يريدون الخروج منها حتى يضمنوا عودة جمال إلى مكتبه، لم أستطع أن احتمل فضربت بيدي الملفات المكومة على مكتبي فتساقط الواحد خلف الآخر على الأرض.. جاءت زينة من خلفي وهي لا تكاد تستطيع أن تقف متوازنة من شدة الضحك..

«اسكتي يا زينة قبل أن تكون الضربة القادمة على وجهك لتعودي إلى البكاء أفضل».

«أنا..... هههههههه... متأسفة.. هههههههههه»، نظرت إليها بغضب فوضعت يدها على فمها لتكتم ضحكاتها.. أخذت الملفات من على الأرض ووضعتها على المكتب وكأنني أضعها على رأس

جمال وأتخيل أنه يكسره فيموت وأتخلص منه..

«تعرفين لا أشفق على أحد إلا على زوجته، فأراه بضع ساعات في اليوم، كيف تستطيع أن تتحمله طوال حياتها، لماذا قبلت بالزواج منه أساسًا وفوق هذا لم تنجب منه واحدًا أو اثنين، بل ستة أولاد من هذا الأب المتوحش؟! كيف يستطيع أي شخص بكامل قواه العقلية أن يعيش في بيت واحد مع هذا الكائن؟!».

أخذت الملف الأول وبدأت أفتحه..

«في كل مرة يفعل بك جمال أي شيء تسمعين هذه الأسطوانة القديمة، وأرد عليك بالردّ نفسه، هو يعاملك أنت فحسب بهذه الطريقة لأنك رفضت طلبه بالزواج منك، أنت لا تعرفين كيف يعامل زوجته أو أولاده».

«أككككره برودك يا زينة!!! أنا في قمة غضبي وأنت تضحكين وتبررين!!! هل يظن أننا عبيده؟! ليس من حقه أن يفعل بي ما يفعل، أريد أن أقدم شكوى إلى مسؤوله أو أي أحد أعلى منه.. لا أستطيع التحمل أكثر».

«ليلى اهدئي أرجوكِ، ما الذي ستستفيدين إذا قدمت به شكوى، تعرفين أن معارفه في كل مكان ويده تصل إلى جميع المسؤولين، ستفتحين على نفسكِ بابًا لن تستطيعي إغلاقه.. دعيه وشأنه».

«ليلى؛ جمال ليس الرجل الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة، جميعهم يظنون أننا النساء اللاتي لا ظهر لنا صيد سهل، يعرفون

أننا في حاجة إلى كلمة حلوة ورجل نعتمد عليه ونرمي عليه همومنا؛ فيلبسون رداء الرجولة والطيبة، حتى يوقعونا في الفخ، فنرى أنهم نزعوا كل الأقنعة ليظهروا على حقيقتهم البشعة التي تخلو من أي جمال ونقف مذهولين أمامهم لنسأل أنفسنا: كيف..؟! كيف استطاعوا خداعنا كل تلك المدة من دون أن ننتبه...؟! كيف لم نرَ ما أرادوا فعله من البداية...؟!».

وبدأت زينة بالبكاء.. ما فعله بها أسامة كسر شيئًا كبيرًا في داخلها يظهر لي الآن؛ فهذه هي المرة الأولى التي أستطيع أن أسمع كل ذلك الحزن في صوت زينة.. ضممتها بين يدي وحاولت تهدئتها..

«لا تخلو الحياة من الأناس الطيبين، سيأتي يوم تجدين فيه الإنسان الذي يستحقك، وحينها ستشعرين بأنه هو من يستحق حبك وقلبك.. سيكون ذلك واضحًا صدقيني..».

«أتمنى ذلك..»، مسحت دموعها بيديها وعادت إلى مكتبها..

بقيت أدعو في قرارة نفسي أن يشفي زينة ويعيدها إلى طبيعتها.. ويرزقها إنسانًا يستحقها وأطفالاً يملؤون الفراغ الذي تعيشه؛ فذلك الفراغ هو السبب الرئيسي للنفسية التي هي فيها الآن، ورغبتها الدائمة في ملئه بالطرق الخطأ والتي تؤدي بها إلى الهاوية..

بدأت العمل على التقرير الذي لا ينتهي، ١٠ ملفات، وكل ملف يحتوي على معلومات لما يقارب ١٠٠٠ عميل لدينا في الشركة، يريدني أن أجمع كل المعلومات الشخصية عن كل هؤلاء العملاء

وأضعها في جدول واحد إلكتروني ليستطيع حضرته الوصول إلى المعلومات بسهولة أكثر، سينتهي عمري قبل أن أستطيع الانتهاء من هذا العمل اليوم، حتى أسبوع لن يكفيني..

عملت من دون توقف ولا حتى لشيء آكله؛ فإذا أخذت ساعة استراحة الغداء فلا يمكن أن أنتهي قبل نهاية الدوام، كانت قهوتي السوداء الخالية من السكر هي التي تحافظ على تركيزي، وبعد عناء وقرابة الساعة السادسة مساء، أنهيت آخر ملف من العشرة، أرسلت زينة لتحضر مريم من الروضة وتبقيها عندها حتى أنهي عملي، طبعت التقرير، ووضعته على مكتبه، وأرسلت إليه نسخة عبر بريده الإلكتروني وجررت جسدي الذي تيبس من طول الجلسة على الكرسي، أخذت مريم من بيت زينة وعدت إلى المنزل، لم أكن أقوى على الحركة ولا الكلام.. تناولنا بقايا الطعام من الثلاجة، وذهبت مريم إلى غرفتها لتلعب، أما أنا فعلى وضعيتي نفسها على الكرسي أمام التلفاز فقدت الوعي ونمت.. لا أدري ما الذي أفعله حتى يتوقف هذا الرجل عن معاملتي بهذه الطريقة..

قطع نومي اللذيذ صوت رنة هاتف المنزل المزعجة.. أيقظني من أحلى نومة، ركضت مريم لترد، ثم نادتني:

«ماماااا.. إنها الخالة مها..».

جررت جسدي عن الأريكة إلى حيث الهاتف وأنا أفكر «يجب أن يكون عندي هاتف لاسلكي»:

«أهلا مها كيف حالك؟!».

«بخير، أوه سامحيني.. هل كنت نائمة؟! هل أيقظتك؟!

«لا لا، كان يومًا شاقًّا في العمل وأنا مرهقة بعض الشيء».

«.. آه كان الله في عونك يا أختاه.. اسمعي أنا في الأسفل، أريد أن أسلمك شيئًا سأصعد الآن...».

«شيء؟! شيء ماذا....؟!».

« شيء لكِ.. ما بك؟! ألا تريدينني أن أصعد..؟!».

«كلاا! أيتها البلهاء كنت أسأل فحسب.. هيا اصعدي أنا في انتظارك».

جاءت مها حاملةً صندوقًا كبيرًا لا يبدو غريبًا عني.. بقيت متصلبة في مكاني لا أريد أن أسأل عمّا يحتويه الصندوق فتجاوبني بالجواب الذي كنت أخشاه...

«نعم.. نعم.. لا اسمعيني ولا تغضبي الآن.. لم أتخلص منه يا ليلى.. كنت أعرف في قرارة نفسي أن يوسف سيعود يومًا ما، لم أصدق أن ما كان بينكما سينتهي لو مرّت أعوام طويلة.. وكنت متأكدة من أنك ستتمنين يومها لو أنك لم تتخلصي منه».

اختفت من لساني الكلمات فلم أستطع تجميعها لأعبر عما أحسست في تلك اللحظة:

«مها.. لا أدري ماذا أقول لك...».

«لا تقولي شيئًا.. افعلي الصواب فحسب، إنه ليس قرار أبيك في

هذه المرة، قرارك أنتِ.. فكري وافعلي ما ترينه مناسبًا».

اكتفيت بضمها إلى صدري وتقبيلها: «أشكرك يا صديقتي...».

وضعت مريم في السرير، وفي غرفتي بقيت أنظر إلى الصندوق أخاف أن أفتحه، فهذا الصندوق يصرخ «يوسف»، كل ما ربطني به موجود في داخله، كيف احتفظت به مها كل هذه الأعوام؟! كنت قد نسيت أمره تمامًا.. استجمعت قوتي وفتحته، وأخرجت ألبوم الصور، صوري مع يوسف تملأ الألبوم، صور من يوم عقد قراننا، كم كنت سعيدة في ذلك اليوم.. صوري حين كان يأخذني من المدرسة، صور له كان يعطيني إياها للذكرى.. كان في الصندوق أيضًا بطاقات معايدة من صديقاتي تحمل صورتي مع صورة يوسف والقلوب من حولها، وورود ذابلة من يوسف، رسائله لي قد تحول لون ورقها إلى الأصفر الذابل، فتحتها لأقرأ كلام الحب والأشعار والأغاني، شعوري بهذه الرسائل كان مختلفًا عن تلك الرسالة الإلكترونية... شرائط قديمة لم يعد عندي المسجّل الذي يشغلها.. أغلقت الصندوق وأغلقت قلبي معه، كانت رؤية كل تلك الأشياء تؤلم أكثر من أنها تُسعد.. حتى لو عاد الآن، ما الذي سيقوله لي؟! سينسيني ما حصل لي بسببه..

ومع جيش الذكريات الذي انهال عليّ في اللحظة التي فتحت غطاء الصندوق فيها، سقطت أرضًا مهزومة كسيرة الجناح لا أمل لي في المقاومة.. فجلست خلف مكتبي وأخرجت دفتر مذكراتي الذي لم أكتب فيه كلمة منذ أعوام، شعرت بأنني أريد أن أشعر بإحساس

الحبر على الورق لأعود إلى الأيام التي كنت أكتب ليوسف رسائل تحمل مشاعري له ويأتي ليأخذها مني من أمام باب المدرسة أو أضعها له تحت عتبة بابنا ليأخذها وهو عائد إلى بيته.. كم كانت تلك الأيام سعيدة ودافئة، كم كنت أنتظر رده على أحر من الجمر، وكم كانت فرحتي لا تقاس بأي فرحة حين أمسك بيدي رسالة منه، بخط يده الذي كنت لا أفهم منه معظم كلماته حتى تعودته، وكيف كان يكتب الحاء كالصاد والسين كالدال..

كتبت ردًّا مختصرًا يخلو من المشاعر التي كانت تقيدني من كل جانب، وبعدما استطعت أن أستجمع قواي نقلت ما كتبت إلى الحاسوب وضغطت زر الإرسال..

msn Hotmail Today Mail Calendar Contacts

Reply | Reply All | Forward | Delete | Junk | Put in Folder | Print View | Save Address

From: laila81@hotmail.com
Sent: Tuesday, Aug 2, 2005, 11:55 pm
To: Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Subject: مرحبا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
نعم أنا هي ليلى وأنا بخير الحمد لله..
لا أخفيك فأنا في قمة المفاجأة والصدمة أن أجد رسالة باسمك كهذه في صندوق بريدي بعد ستة أعوام من الانقطاع والصمت غير المفسّر.. كيف استطعت الوصول إليّ؟! ومن أين جئت بعنوان بريدي؟! ما الذي ذكّرك بي بعد كل تلك الأعوام؟! وما التفسير الذي تظن أنه سيغفر لك ما فعلت..؟! أنا متأسفة فلا أستطيع الكلام معك في أي موضوع لأنه لا يوجد أي كلام بيننا..
لا أعرف ما الذي كنت تتوقعه من رسالتك تلك، ولكن أعذرني، فليس عندي ما يهمك..

ليلى

ندمت في اللحظة التي أرسلت فيها الرسالة، لا أعلم لماذا، لم أكن أريد أن أعطيه أي حسبان، أعلم أن في مكان ما، داخل أعماقي، جزءًا صغيرًا مني سَعد برسالته، لكن الغضب واللوم كانا الجزء الأقوى داخلي.. استسلمت للنوم لأن تعبي الجسدي كان أقوى من تعبي الذهني فلم أستطع أن أفكر أكثر فيما فعلت...

في اليوم التالي، استيقظت من نومي قبل موعدي بكثير، لأجد حاسوبي يذكرني بما فعلت البارحة، لم أكن أريد التفكير في الأمر أكثر، كان التفكير فيه يرهقني أكثر وأنا يكفيني ما يفعله بي جمال كل يوم، تناولت مع مريم الفطور في المنزل، شعرت وكأنني لم أرَها البارحة فوعدتها بأن نفعل شيئًا متميزًا في نهاية الأسبوع لأعوضها عن انشغالي..

وحين وصلت إلى مكتبي، لم أستطع أن أفعل أي شيء قبل أن أتفقد بريدي، فضولي كان أقوى مني، أعترف بذلك، وعلى غير المتوقع، كان هناك رسالة جديدة.

msn Hotmail Today Mail Calendar Contacts

From : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 2005, 5:30 am
To : laila81@hotmail.com
Subject : مرحبا

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته
انتظرت ردك ثلاثة أيام وكانت أكثر الأيام التي تفقدت فيها بريدي في حياتي كلها، وكانت اللحظة التي رأيت فيها اسمك يزين صندوق بريدي من أسعد اللحظات، اشتقت إلى وجود اسمك في حياتي.
أعلم أنني مهما تكلمت واعتذرت، فلن تسامحيني على ما فعلت، ولكن أريد فرصة واحدة أقدم فيها لك كل ما عندي، ولك حرية القرار، فرصة واحدة فقط ... بانتظار ردك
تحياتي
يوسف عبدالرحمن

إنه هو بالفعل.. إنه يوسف، هذا هو أسلوبه، هذه كلماته.. يخاطبني ويتذكرني، يتذكر أيامنا التي أُخِذت مني في ليلة واحدة، نظرت إلى تاريخ رسالته، أرسلها فجر اليوم، أيعني أنه كان ينتظرني لأبعث له بردّي؟! ألهذا الحد هو ينتظر ردي؟! ما الذي يريد تفسيره؟! ما الذي يريد أن يخبرني به؟! وكيف استطاع الوصول إليّ؟!

وأنا في دوامة أسئلتي شعرت بضرباتٍ على كتفي، لم أنظر إلى الوراء لأني عرفت أنها زينة:

«ما بك تنظرين إلى الشاشة وكأنكِ قدِمت من العصر الحجري

وترين شاشة أول مرة في حياتك؟!».

لم أجِبها ولم أتوقف عن النظر في الكلمات التي بدأت بالحركة أمامي لتشكل وجه يوسف.. لا أصدق أنه تربطنا الآن شبكة عنكبوتية أستطيع أن أرسل إليه ما أريد ويستطيع أن يكلمني.. أخذت نفسًا عميقًا:

«اقرئي» وأفسحت المجال لزينة حتى تقرأ ما كتب يوسف وبدأت عيناها بالتوسع حتى كادتا تخرجان خارج عدسات النظارة الزجاجية.. لم تُعلّق، ولم تكلمني، بقيت متيبسة تحدق في الشاشة حتى شعرت بأن وجهها مال إلى الاصفرار...

«ما بك..؟! من القادم من العصر الحجري الآن..؟! أخبريني ماذا أفعل..» سألتها.

لم ترد زينة عليَّ بل ظلت تنظر إلى الشاشة... وبعد دقائق اعتدلت في وقفتها وعاد وجهها إلى لونه الطبيعي..

«عندي عمل مهم يجب أن أنهيه..»، ورحلت عني من دون حتى أن تُعلّق أو تتكلم..

استغربت من رد فعل زينة، هل ملّت هذا الموضوع وكلامي عنه؟! ماذا أفعل فليس عندي غيرها أتشاور معه في أمري؟! هل يذكرها كلامي عن يوسف بأسامة الذي أحبته وتركها؟! ظننت أنها نسيته فهي دائمًا تنسى بسرعة.. ربما أنا معدومة الإحساس فحتى لو كانت تظهر أمامي أنها نسيته فيجب أن أجزم أنها لا تزال مجروحة

من الداخل..

في داخلي شك وخوف، حنين وعتاب، حب وكره، عقلي لا يريدني أن أكتب له، ذاكرتي لم تسمح لي بنسيان ذلك اليوم الذي وقَّع فيه ورقة طلاقي من دون أن ينظر إلي، هو السبب بوحدتي الآن، السبب بكرهي جميع رجال العالم، السبب الذي دفعني إلى أن أتزوج رجلًا لا أحبه في محاولة فاشلة حتى أنساه، لأخوض أقسى تجربة في حياتي، لو أعطاني سببًا واحدًا لكنت عذرته بل سامحته حينها، لكنت انتظرته العمر كله، لكنه لم يفعل.. والآن بعد ستة أعوام من الصمت يأتي ليطلب مني أن أسمع.. هل من الممكن أن يغير كلامه شيئًا؟! هل من الممكن أن يحرك قلبي الساكن داخل صدري ويوقظه من حالة السبات التي عاشها طوال تلك الأعوام..؟! ماذا لو فعل..؟! ماذا لو ضعفت أمامه؟! ماذا لو استعاد قلبي وعيه وحن إلى الإنسان الوحيد الذي استطاع أن يترك بيته في صدري وينتقل ليعيش معه حتى وإن كانت الجروح تملؤه؟! ماذا لو سامحه قلبي على ما فعل؟! ماذا سيحدث عندها؟!

ذهبت زينة لتكمل عملها وبقيت أنظر إلى الشاشة لا أعرف ماذا أقرر، هل أعطيه المجال ليتكلم، أم أقفل هذا الباب ولا أفتحه وأنسى ما حصل؟! لا أظن أنني أقدر على ذلك.. وضعت أصابعي على لوحة المفاتيح، وبدأت أصابعي تتحرك لتكتب ما يدور في داخلي.

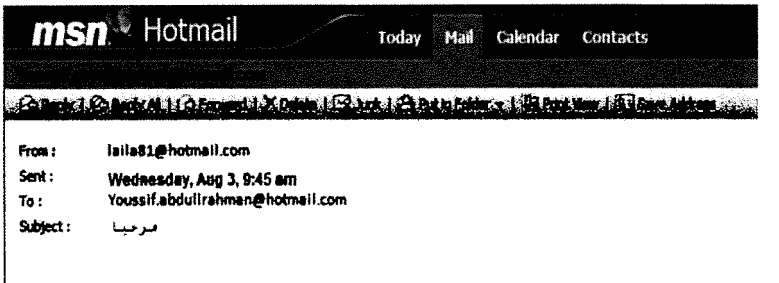

msn Hotmail   Today   Mail   Calendar   Contacts

From : laila81@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 9:45 am
To : Youssif.abdullrahman@hotmail.com
Subject : مرحبا

السلام عليكم.

كم تمنيت لو أنك لم ترد، حتى أقتنع بأن الرسالة كانت بالخطأ أو مزحة أو أي شيء آخر فأنساها تمامًا.. لم تجاوبني كيف حصلت على عنوان بريدي..؟! أعتقد أن هذه الإجابة سهلة، هل قابلت خالي.. أم أخي جابر، لا يهم.. لا أعرف ما الذي ستستفيده إذا أعطيتك الفرصة التي تتحدث عنها، فبعد ستة أعوام من الانفصال، ما الذي تريده الآن؟! لمَ عدت؟! أو السؤال الأصح: لمَ عدت إليّ؟! لمَ العودة للتواصل، لقد اتخذت قرارك يومها بالانفصال، تركتني بسهولة من دون أن تدافع أو تحاول.

انتظرتك كثيرًا لكنك لم تبالِ، تركتني لأتحمل كلام الناس يعيبون بي وبأهلي، من دون أن تقف في وجههم، هربتَ واختفيت وبقيتُ وحدي في وجههم جميعًا، هل تخيلت ولو لحظة كيف يمكن أن يكون ذلك الشعور؟! لكنني الآن والحمد لله في أحسن حال وحياتي متوازنة، استطعت أن أقف على قدمي مرة أخرى من دون مساعدة أحد، ولدي ابنة هي كل ما أملك، فما الذي تريده الآن..؟! اعتذارك وتبريرك وكلامك لن تغير شيئًا في ما حدث، فوقت الكلام والاعتذار انتهى منذ زمن طويل يا يوسف، تأخرت كثيرًا، و لم يعد لأي كلام أي معنى الآن.. وإن كنت تريد أن تتسلى لأنك تشعر بفراغ من أي نوع فاعذرني؛ فأنا لا أملك وقتًا لذلك..

ليلى

وبعدما ضغطت زر الإرسال، اتصلت بخالي في لحظتها، كنت أريد أن أخرج الغضب الذي في داخلي، أريد أن أصرخ في وجه أحدهم، أريد أن أعاتب، لو كان ما ظننته صحيحًا وخالي هو من أعطاه عنوان بريدي من دون إخباري أو الاستئذان مني:

«السلام عليكم يا خالي..!».

«وعليكم السلام، ليلى الغائبة.. أين أنت لم أسمع صوتك منذ مدة؟!».

«أنا بخير الحمدلله، أنت كيف حالك..؟! وكيف حال زوجتك وابنتك؟!».

«تمام جميعًا بأفضل حال..».

«أخبرني يا خال.. هل تريد أن تخبرني أي شيء..؟!».

«..... كنت أعرف أنك ستتصلين.. هل كلمك؟!».

«أرسل إليَّ برسالة.. ما بك يا خالي؟! لِمَ أعطيته عنواني وسمحت له بالتواصل معي بعد الذي فعله بي وبنا جميعًا..؟! هل نسيت..؟!».

«يا ليلى لا تغضبي، اهدئي، لن تستطيعي أن تفكري وأنت غاضبة، كل ما في الموضوع أن يوسف عاد، كان في الخارج فترة طويلة، لم يسمح لي بأن أخبرك أي تفاصيل، يريد أن يخبرك هو بما حصل ولِمَ فعل ما فعل، حلّفني ألَّا أخبر أحدًا قبل أن يكلمك هو، وطلب ألا يعرف أبوك أي شيء..».

بقيت صامتة.. لا أصدق أن خالي يدافع عنه..

«يا ليلى، يوسف عائد يريد أن تعودي إليه بعد كل الذي حصل والزمن الذي مضى، عاد ويريد صُلحًا معك ومعنا ومع الجميع..».

«هل صدّقته يا خال..؟! كيف أصدقه وهو تركني من دون سبب..؟! لا أستطيع».

«ليلى مِن الذي سمعته رأيت يوسف متغيرًا، واثقًا من نفسه أكثر، يكلمني بكل ثقة، لم يعد ذلك الذي كان منقادًا خلف أبيه.. خذيها مني نحن الرجال نفهم بعضنا..».

«لا أدري يا خال، لا أدري.. سيحلها الله، شكرًا يا خالي، سلّم على».

مرّ أسبوع على تلك الرسالة.. لم أتفقد بريدي ولا حتى مرة واحدة.. ساعدني على ذلك جمال، فلم يكن يدعني أفكر في شيء غير أن أنهي ما يقذفه في وجهي كل صباح؛ فأبقى في مكاني من الثامنة صباحًا حتى آخر الدوام.. اتصلت بي زينة في بداية الأسبوع وأخبرتني أنها ستذهب في إجازة مفاجئة، ليس من عادتها ذلك؛ فهي في العادة تخطط قبل أشهر طويلة لسفرها.. لكن هذه المرة كانت غريبة.. منذ أن قرأت رسالة يوسف تلك وهي غريبة الأطوار، يجب أن أكلمها عندما تعود وأعتذر منها إن كنت قد تسببت لها بأي ألم أو ذكرتها بأسامة من دون قصد....

اتصلت بي صفاء في صباح يوم كنت قد شعرت بأنه مختلف، أخبرتني بأنها أكملت تقديم أوراق أختي سميرة وبأنها تنتظر ردًّا من الإدارة غدًا أو بعده كحدٍّ أقصى، أخبرتني كيف فعلت ما يكاد يكون مستحيلًا لتقبل الجامعة أوراق سميرة؛ لأننا قدمنا الأوراق بعد آخر موعد للتسجيل.

بقيت في تلك الليلة أدعو الله أن يتم قبولها في الجامعة وأن تخرج من البيت لتكمل دراستها وتحقق إنجازات عظيمة في حياتها بدلًا من الجلوس من دون أي فائدة في المنزل، قررت ألا أخبر سميرة

بأي شيء قبل أن أكون متأكدة من قبولها فلا أسبب لها مزيدًا من الإحباطات إذا حصل شيء وتم رفض التسجيل.

وبالفعل اتصلت بي صفاء في اليوم التالي لتخبرني أنه تم قبول سميرة لتبدأ الدراسة في الفصل المقبل في كلية الطب، قمت من لحظتها بتحويل المال من مدخراتي الشخصية إلى صفاء لتقوم بدفع كل مصروفات الجامعة والكتب والسكن، كنت في قمة سعادتي وحماسي، لم أستطع أن أنتظر حتى ينتهي الدوام الرسمي، استغللت فرصة غياب جمال وطلبت إذن خروج وذهبت لآخذ مريم من مدرستها ثم طرت بأقصى سرعة إلى منزل أهلي.

وفي منزل أهلي، جمعتهم أمامي لأزف الخبر إليهم، بكل حماس وسعادة أخبرتهم أنه تم قبول سميرة في كلية الطب في مصر.

«تريدين أختك أن تذهب وتعيش في بلاد الغربة وحدها..؟؟!»، قال أبي مستنكرًا الفكرة مع أنني قد عرضتها عليهم من قبل ولم يكن معارضًا.

«لن تكون وحدها يا أبي، صفاء صديقتي القديمة هي التي ستتولى أمورها هناك، لا تقلق، ستكون بخير، أؤكد لك ذلك..».

«من تكونين لتقرري أن تسافر أختك إلى الخارج وحدها.. لا يوجد لدينا بنات يسافرن وحدهن ويعشن وحدهن.. يكفينا ما فعلت أنت يا ليلى.. لا تخربي أختك أيضًا».

جاء صوت جابر أخي من الخلف، كان دائمًا معترضًا على طريقة

حياتي وخروجي من بيتنا من دون أن يقدم لي حلًّا آخر.. لم أكترث حتى لأن أرد عليه.. ذهبت إلى أبي وجلست تحت قدميه..

«يا أبي اسمعني.. سميرة قُبلت في كلية الطب، ستصبح طبيبة تفخر بها أمام جميع الناس.. لا تسمح لأي شيء بأن يقف في طريق مستقبلها أرجوك..».

شعرت من ملامح وجه أبي بأنه بدأ يتقبل الفكرة قليلًا.

بحزن شديد وألم، قالت: أمي «ولا يبقى أحد عندنا في المنزل، أنت رحلتِ والآن أختك..».

قمت وقبّلتها على رأسها: «يا أمي هي خمسة أعوام، ستأتي سميرة في الإجازات مرتين كل عام، وبعدها ستعود طبيبة تفخرين وتتباهين بها أمام جميع صديقاتك».

«يا ابنتي الغربة صعبة، لقد فقدتك أنت، والآن أختك.. هي ليست مثلك.. لن تستطيع التحمل».

«أنا هنا يا أمي لم تفقديني، وهناك ستذهب للدراسة، ولن تعيش وحدها، اسمعوني، لقد رتبت لها كل شيء، ستعيش مع صفاء صديقتي؛ فهي تعيش وحدها مع ابنها وابنتها الصغيرين، زوجها يعمل في الخارج، ولا يعود إلا في الإجازات التي ستكون فيها سميرة هنا، يعني أنها ستكون مرتاحة وسأرسل إليها شهريًّا كل مصروفاتها، لا تقلقوا ستكون في أيدٍ أمينة صدقوني».

حل الصمت دقائق من جميعنا وأنا أُقلب رأسي؛ أنظر إلى كل واحد

فيهم، جابر يتنافخ بغضب ثم ترك الغرفة، أبي شابك أصابع يديه أمامه، وأمي واضعة يدها على رأسها.. وسميرة.. سميرة أساس الموضوع لم أسمع لها رأيًا.. ولا تعليقًا.. نظرت إليها لأشجعها على أن تتكلم، وبعد عناء أخرجت كلمتين:

«أبي، أمي... أنا أريد أن أدرس، لا أريد الزواج، هذه الفرصة لن تتكرر، أنا أستطيع أن أسافر، لا تقلقا عليّ».

قالت أمي: «افعلوا ما ترونه مناسبًا.. دعوني أنا خارج الموضوع..».

«وأنت يا أبي..».

ظلّ أبي صامتًا، يفكر، حائرًا، قلقًا، لا يدري ماذا يقرر.. بقيت عندهم أقنعهم عن المعاناة التي عانيناها أنا وجابر، لأننا لم نكمل دراستنا، وكيف الحياة الآن صعبة ومادية، لا يوجد مكان لمن ليس عنده شهادة.. وسميرة ستعود طبيبة؛ فهذا يستحق التضحية قليلًا منا جميعًا.

أما سميرة فكانت بين نارين: نار الشغف بالدراسة التي كادت تنطفئ وبدأت تشتعل ببطء، ونار الخوف من الغربة ومن البعد، من تجربة شيء جديد لا تعرف ما هو وكيف سيكون، لم تستطع أن تفرح بالمفاجأة؛ فقد كان الخوف المسيطر الأكبر عليها.

«كيف سأعيش وحدي يا ليلى، بعيدًا من أمي وأبي، لم أبتعد عنهما يومًا واحدًا؟! كيف سأستطيع أن أعيش وحدي في مكان بعيد في قارة أخرى؟!».

«يا سميرة اسمعيني، الغربة الحقيقية غربة القلب وليس المكان، من الممكن أن تبعدنا أميال طويلة عمّن نحب فنشعر بالشوق والحنين، الوحدة والبعد، لكن القلوب تبقى متقاربة وإن طالت المسافات؛ لتشعرنا أصواتهم بالدفء وتأخذنا إليهم وكأننا نشعر بحرارة أجسادهم إلى جانبنا.. فتتلاشى أحاسيس الفراق لتسكن مكانها مشاعر الأمل بلقاء قريب.. أما القلب فغربته بفقدانه الحب، الأمان، حضنًا دافئًا يشعره بأن غدًا يوم أفضل، كلمة طيبة تطمئنه بأن الدنيا ما زالت بخير فتبقى غربته مظلمة كئيبة لا ضوء فيها، كدرب طويل لا نهاية له..».

كانت سميرة تنصت إلى كل كلمة أقولها فأكملت:

«أنت تعلمين سبب وجودك هناك؛ الدراسة، سترين مستقبلًا باهرًا أمامك، الطريق الذي ستسلكينه سيكون مضاء وليس مظلمًا كما تشعرين، وأنا أتمنى أن الأيام الأولى فقط ستكون صعبة، لكنك ستتعودين عليها، لا ألومك إن كنتِ تشعرين بالخوف القليل، ولكن لا تدعيه يسيطر عليك ويحجب عنك رؤية ما تستطيعين إنجازه، يا سميرة الحياة جميلة ومملوءة بالفرص التي تنتظر الواحد منا ليقفز عليها ويغتنمها، عيشي حياتك حتى عندما تكبرين وتنظرين إلى الوراء، ترين أنك كنت تتقدمين طوال مشوارك ولم تقفي لتنتظري أحدًا أو فرصةً أو زوجًا».

«أعلم يا ليلى، أفهم ما تقولين، أنت محقة، أنت قدوتي في الحياة، أخاف لأنني لست بالقوة التي أنت بها وأن أفعل ما فعلتِ، أنا لست

مثلك لكنني سأحاول، أعدك».

«لا تكوني مثلي، كوني أنت، وابحثي عمّا تقدرين على إنجازه بنفسك وانجزيه، وسيأتي اليوم الذي ستكونين أنتِ قدوة أولادك يا دكتورة سميرة».

ابتسمت وارتمت في حضني كالضائع الذي وجد طريقه أخيرًا.. أخذت أختي الصغيرة بين ذراعي وضممتها كما لو كانت ابنتي، أتمنى أن يكون كلامي قد شجعها ودفعها إلى الأمام، ولن تغير رأيها فجأة بسبب خوف أو تردد كما هي عادة سميرة دائمًا.. فارق السن بيني وبين سميرة ليس بالكبير، لكنني حين كنت أعيش في بيتنا كانت لي حياتي المملوءة بالمغامرات، كنت محط أنظارهم جميعًا، لديّ صديقاتي المقربات، عشت قصة حب مع يوسف، تزوجت مرة أخرى، ثم تركت بيتنا وانتقلت لأعيش وحدي، كانت الأحداث في منزلنا تدور حولي وتبقى سميرة كالخلفية في صورة أتصدرها أنا، مستمعة فحسب، لا تُعلّق ولا تبدي أي رأي في أي موضوع لا يخصها حتى وإن كان الموضوع يخص أختها الكبرى، على الرغم من أنها كانت الأكثر تفوقًا بيننا في الدراسة، لم يكن ذلك يبرزها في نظر أمي وأبي كما كنت أنا.. أما الآن فأنا أحاول ما في وسعي لأريها الطريق الذي يجب عليها أن تسلكه لتصنع لنفسها حياة أفضل؛ فهي أختي الصغرى وهذا واجبي لها حتى وإن لم تعد صغيرة.

كانت أمانيّ أن يكون مبارك فارس أحلامي الجديد، مجرد أماني، وبقيت أماني لم تجد من يحققها؛ فلم أشعر معه ولو لحظة واحدة بأنه زوج محب؛ فلم يستطع أن يعطيني حبًا أو حنانًا أو حضنًا دافئًا أحتمي في داخله كلما شعرت بالخوف أو الغربة.

كان المنزل الذي أسكن فيه وحيدة معه يقع في ما أشبه بالقرية أو المكان النائي البعيد من كل ما هو قريب من حياة المدينة، كان المنزل في الأصل منزل أهله، ولكن حين توفي والداه وتزوج جميع إخوته، بقي هو في المنزل يعيش وحيدًا حتى جئت لأشاركه تلك الحياة... كان بيتًا كبيرًا جدًا، مترامي الأطراف، فيه غرف كثيرة مغلقة لا يقربها أحد إلا في حال جاء أحد الأخوة ليقضي عطلة نهاية الأسبوع، أما الأثاث فقد كان قديمًا جدًا، كئيب الألوان، مهترئًا في معظم الغرف والصالات؛ ما أضفى على المنزل جوًا من الكآبة.. دخلت البيت وأنا أجرّ قدمًا خلف الأخرى لعلّي أضيّع بعض الوقت فيحصل شيء ما وأعود إلى بيتنا..

في يوم انتقالي الأول، صحبتني أمي وسميرة أختي إلى منزل مبارك لتساعداني في ترتيب أغراضي وتطمئن أمي إلى أنني بخير.. كنت في حالة من الذهول، الخوف، التوتر، لم أكن أريدهما أن تتركاني وحدي، حاولت إقناع أمي بأن تقضي معي الليلة الأولى في هذا المنزل، لكنها رفضت وقالت لي إنه ليس من اللائق أن تنام معي وأنا عروس جديدة.. كرروها أمامي

كثيرًا: عروس جديدة.. عروس جديدة.. لكثرة ما كانوا يكررونها ويقولونها أمامي، كنت أكره الكلمة أكثر، وتخنقني العبارة حين أسمعها وأوشك على البكاء..

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة وليالٍ كثيرة بعدها، لم أكن معتادة أن ينام شخص معي في السرير إلى جانبي، لم أكن أرتاح حين يضع يده على جسدي فأتمنى لو أستطيع قطع ذلك الجزء مني، أو حين أشعر بأنفاسه قريبة مني أفقد قدرتي على التنفس... كنت أشعر بأنني "بيل" من الفيلم الكرتوني "الجميلة والوحش"؛ إذ تقدم الجميلة نفسها ضحية للوحش مقابل أن يترك أباها يعود إلى منزله بسلام؛ فتبقى سجينة القصر العملاق تحت رحمة وحش لا يعرف الرحمة.. في داخلي أتمنى أن تكون نهايتي كنهاية الفيلم وأكتشف الجانب الجميل من مبارك وأحبه في النهاية.. لكنها كانت أمنية كغيرها من الأماني الكثيرة في حياتي التي لم تتحقق..

كان مبارك يخرج في الصباح الباكر ويغلق الباب من الخارج؛ خشية أن "يدخل غريب عليَّ وهو ليس في المنزل"، كما يقول من دون أن يترك لي مفتاحًا في حال اضطررت للخروج.. فكنت أبقى من الصباح حتى الساعة الثامنة أو التاسعة مساء سجينة هذا المنزل الذي من المفروض أن أشعر بأنه منزلي..

في بداية أيامي، كنت أبكي كل يوم، أبكي من الوحدة القاتلة التي شعرت بها وأنا وحدي من دون أمي وإخوتي، وأعلم أنه يفصلني

عنهم كيلومترات كثيرة، أبكي على شعوري بأنني سجينة، يغلق عليَّ بابًا من الخارج فأصبح متأكدة من أنني لا أستطيع الخروج.. أبكي على حظي الذي انقلب بين ليلة وضحاها من فتاة واقفة على جناح الهوى إلى فريسة كانت سهلة الاصطياد؛ فلم يبذل الصياد أي مجهود في اصطيادها وحبسها في سجنه الخاص ليستمتع بتعذيبها وحده.. وبعد البكاء الذي لا يسمعه أحد، كنت أحاول أن أصبّر نفسي بأنه ربما، ربما تتغير الحال، أدعو في كل صلواتي أن يزرع الله حبه في قلبي وحبي في قلبه، أغمض عينيّ وأتذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، فأرتاح لأنني أعلم بأن الله سيفرجها عليَّ يومًا ما..

كنت أشغل معظم وقتي في تنظيف المنزل الذي لا أمل له في أن يرى النظافة، فكيف له أن ينظف وأثاثه قديم يدل على أنه منذ أن تركه أهله وعاش فيه مبارك وحده، لم ينظفه أحد، أو حتى يمسح الأتربة التي جمّعتها الأيام على سطوح الطاولات في الغرف..؟! وكونت لنفسي جدولًا بأن أنظف كل يوم غرفة من غرف المنزل أو إحدى الصالات؛ فأبدأ بالتنظيف من الصباح الباكر، أغير الشراشف القديمة.. أمسح الأرضيات، ألمّع الكريستالات التي اختبأ لمعانها تحت طبقات الأتربة المتجمعة عليها.. وبعد انتهائي من الغرفة المقررة لليوم، أدخل المطبخ لأحضر الوجبة التي تجمع الغداء والعشاء في آن؛ لأن مبارك لا يصل إلا في وقت متأخر.. وفي النهاية، كان يومي ينتهي بجسد

منهك أرمي به على السرير وأنام من دون إحساس.. وكأنني في مخيم صيفي يختبر قدرتي على التحمل وليس في المنزل الذي من المفترض أن أكون أنا سيدته..

مع مرور الأيام، وبعدما استطعت، وبأعجوبة، أن أغيِّر من المنزل القديم الذي اتخذت منه حبات الغبار منزلًا لها في فترة طويلة، إلى منزل تلمع أركانه من شدة النظافة، شعرت بالفخر بنفسي وبالإنجاز الذي حققته، كنت أخبر أمي بسعادتي بالإنجاز الذي فعلته، وكانت تقول لي إن زوجي سيكون سعيدًا بي أكثر.. كم تمنيت أن أرى ولو طيف تلك السعادة أو الإعجاب الذي كانت تتكلم عنه أمي.. فقد كان تذمر مبارك أكثر من مدحه؛ فلم تبقَ وجبة إلا وأبعد الأطباق من أمامه؛ لأن طبخي سيئ كما يقول ولا يؤكل، ولم تبقَ مزهرية وضعت بها ورودًا لتزيين البيت إلا أخذها وألقاها في وجهي؛ لأنه لا يحب الورد ولا يحب وجوده في المنزل؛ لأنه يجلب الحشرات، حتى شكلي ولبسي لم يسلما من تعليقاته وتذمره المستمر؛ فيجرحني بكلماته بأنني لا أعرف ألبس كما تلبس الممثلات على شاشة التلفاز، وبأن أهله وصفوني له بأنني أجمل، ولهذا وافق على الزواج بمطلقة فحسب، وأنه صُدِم بشكلي الأقل من عادي في يوم عقد القران بعد فوات الأوان.. حتى العطور غالية الثمن التي اشترتها لي أمي من النقود التي كانت تجمعها وظلت تعلمني كيف أستخدمها، أمرني بأن أرميها لأنه لا يحب رائحتها فهي تجلب له الغثيان..

كل ما هو جميل قَبّحه مبارك، وكل ما يجلب السعادة في الحالة الطبيعية حوله مصدرًا للاكتئاب، وكل ما يسبب الابتسامة جعله سببًا للبكاء..

مرت أسابيع وأنا معه على الحال نفسها ومن دون أن يتغير شيء، وإذا كان هناك تغير يصبح تغيرًا إلى الأسوأ فيظهر سوء مشاعره تجاهي، احتقاره لي ولأهلي، شعوره بأنه يملكني وأنا أقف عاجزة لا أعرف ماذا أفعل، لا شيء أفعله يجدي نفعًا في إصلاح هذا الزوج، بقيت أعيش بين نارين: نار عدم تحمُّل هذه الحياة التي أعيشها، وخوفي من الانفصال والطلاق مرة أخرى فأفقد كل شيء..

كنت أشعر في معظم الأوقات بالاختناق من طول مدة جلوسي وحيدة وأنا على علم بأنني لا أستطيع الخروج لأن الباب مقفل، كان شعوري كالعصفور السجين في قفص كبير؛ يستطيع أن يرى العالم حوله، ولديه كل ما يحتاج إليه في قفصه من طعام وشراب، لكنه يريد أن يخرج من قفصه حتى وإن كان لا يعلم إلى أين، يريد أن يحلّق بعيدًا ليرى ما الذي يخبئه العالم له..

كانت الأيام الطويلة والساعات غير المنتهية تتركني ضحية التساؤلات والأفكار التي لا إجابات عنها: ماذا لو كان يوسف زوجي الآن؟! هل سأكون بهذه التعاسة؟! ماذا لو لم يتركني؟! كيف كانت ستكون حياتي؟! ماذا لو...؟! ماذا لو..؟! وحين أسقط في تلك الدوامة أستنزف كل قواي حتى أنتشل نفسي

لأخرج منها إلى الواقع الأليم مرة أخرى.

كنت أتصل بأمي وأنتحب حين كنت أصل إلى مرحلة الانهيار؛ فتأتي هي وإخوتي كلما استطاعت لتسليتي في أثناء اليوم ثم يعودون إلى منزلهم وأبقى وحيدة مرة أخرى، رجوت مبارك في يوم أن يسمح لي بأن أذهب لأقضي إجازة آخر الأسبوع في منزل أبي لكنه رفض رفضًا صارمًا وكأنني ارتكبت جريمة في طلبي ذاك؛ بحجة أن خالي يدخل كثيرًا من أصدقائه إلى بيتنا ومن دون أن يمنعه أحد، وأنا الآن على ذمته وهو لا يمكن أن يسمح لي بالوجود في مثل هذه الأجواء غير الأخلاقية كما يصفها هو.. كلما كان يذكر أهلي أو منزلنا أو حياتنا بسوء كنت أكرهه أكثر، كانت نظرته إلى المرأة دونية، إنها كائن أو جهاز يستخدم للتنظيف والطبخ والإنجاب، ليس لها مشاعر ولا حاجات غير المأكل والمشرب.

كانت ساعات اليوم طويلة جدًا تمر ببطء شديد يومًا بعد يوم، كنت أشعر بأن المنزل يضيق بي يومًا بعد يوم، حتى كدت أشعر بأنه يطبق على أنفاسي ولا أستطيع أن أتحمل هذه الحياة أكثر.. حاولت التحدث إليه، بأن يترك المنزل مفتوحًا فأستطيع أن أخرج إلى محل البقالة أو الجمعية لأشتري بعض الأغراض للمنزل إذا احتجت ذلك بعد استئذانه طبعًا، لكن ردّه كان صدًا آخر وكلامًا جارحًا يمسني ويمس كرامتي، بأنني أريد أن أخرج لأتعرف إلى شباب القرية وأبدأ علاقات معهم فهكذا عرفت

يوسف وبدأت علاقتي به..

كان فارق السن الكبير بيننا يحول دون أي اهتمام مشترك أو حتى موضوع للتحدث به على العشاء، لم أكن على اتصال بأي من صديقاتي، ولم أكن أخرج من المنزل، فلم يكن لدي أي أحاديث مشوقة لأتكلم بها غير كلامي عن حياتي في منزل أهلي وعلاقتي بإخوتي وأمي وأبي، والذي لم يكن مبارك يعير له أي اهتمام، وكأنه لا يسمعني.. أما هو فأحاديثه عن أعماله والمقاولات والبيوت والأسعار التي لا أفقه فيها شيئًا؛ فلا أستطيع مشاركته التفكير ولا حتى إبداء أي رأي فيها؛ فكنت في نظره معدومة الفهم، قليلة التعليم والخبرة في الحياة، لا أصلح لشيء..

عدت إلى منزلي في ذلك اليوم وأنا في قمة سعادتي، شعرت براحة لا توصف، ودعوت الله من كل قلبي أن يتم موضوع جامعة سميرة بكل نجاح ومن دون أي معوقات.. في تلك الليلة ولأن مزاجي كان رائقًا لا يمكن أن يعكره شيء، قررت أن أتفقد بريدي لأرى إن كان يوسف قد بعث بأي رد بعد رسالتي القاسية المملوءة بالحقد والعتاب، وجدت ثلاث رسائل جديدة في بريدي، كلها منه، فوجئت بها ولم أعرف كيف يجب أن أشعر..

From : laila81@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 9:45 am
To : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Subject : مرحبا

ليلى.

من دون أي مقدمات؛ أولًا: دعيني أعبر لك عن سعادتي بتواصلك معي، كلماتك أعادتني إلى أيام خلافاتنا القديمة، وما أجملها من خلافات، ردكِ عليَّ يعطيني الأمل أن هناك ولو جزءًا بسيطًا في داخل قلبك الكبير قد سمح لك بمراسلتي.. اعذريني على سعادتي فإنني أعرف أن سعادتي لا تعني لكِ شيئاً في وقتنا الحالي..

ثانيًا: لست هنا لأدافع عن نفسي وأبرر لك موقفي، أتمنى فقط أن تسمعيني أولًا ثم سأترك لك حرية القرار...

ولأجيبكِ عن سؤالك: لمَ الآن..؟! هناك أسباب كثيرة أريد أن أشرحها لك.. حالت دون تواصلي معك.. أسباب أظن لو أنني جلست معك جلسة واحدة أستطيع فيها أن أشرح لك الظروف التي مررت بها من تلك الرحلة المشؤومة حتى الآن، الظروف التي لم أجرؤ على أن أتواصل معك بعد ما فعلته بك وبعد الألم الذي سببته لك بسبب ضعفي واستسلامي أمام قرارات أبي..

لا أريد أن نتكلم عبر الرسائل يا ليلى، أريد أن أراك.. أحتاج أن أراك لأتكلم معك وأشرح لك ما حصل..

في انتظار ردك مع حبي واحترامي..

يوسف

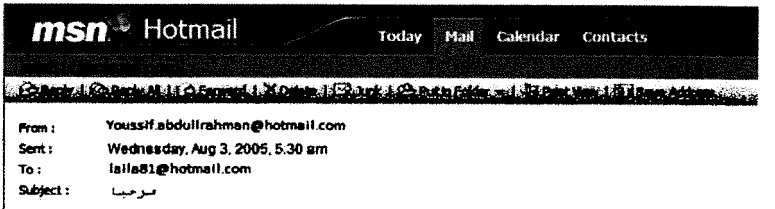

From : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 2005, 5:30 am
To : laila81@hotmail.com
Subject : مرحبا

ليلى.

لم يصلني منك أي رد.. لا أدري إن كان كلامي كثيرًا عليك، أو أنني تعشمت أكثر مما ينبغي في أنك ستسمحين لي بلقائك..

أتفهم شعورك إن رفضتِ لقائي، لكنني أتمنى أن تعيدي النظر والتفكير أرجوك.. أعدك أن أخرج من حياتك في حال رفضت أعذاري الواهية..

ما زلت على أمل .. في انتظارك

مع حبي واحترامي..

يوسف

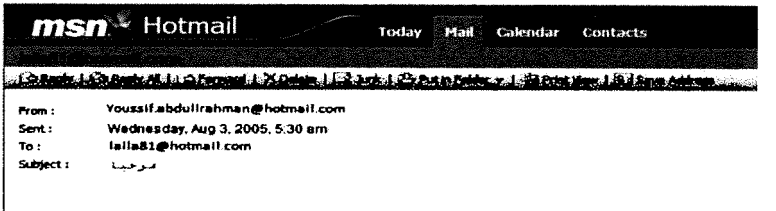

From : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 2005, 5:30 am
To : laila81@hotmail.com
Subject : مرحبا

الغالية دومًا.. ليلى

هذا هو اليوم السادس من دون أي رد منك، أنا متفهِّم لشعورك إن كنت لا تريدين فتح باب قلبك لي مرة أخرى، لكنني سأبقى على أمل،

أتمنى لك حياة تملؤها السعادة التي تستحقينها.

يوسف

وقفت شعيرات يدي وأنا أقرأ الجملة وراء الأخرى، وكل رسالة تظهر فيها رغبة يوسف أكثر من الأخرى في اللقاء والتواصل معي، لم أكن أظن أنه يريد التواصل بهذا الإلحاح، يا ترى ما الذي يخفيه في رسائله؟! الشوق الذي استيقظ في قلبي بعد قراءة كلماته سبّب لي ألمًا داخليًّا، كم أريد أن أراه، أو أن يمسك بيدي الآن ليوقف ارتعاشها التي تسببت رسالته بها.. ولكن ما الفائدة وما الذي سأستفيده من هذا اللقاء؟! هل سأعود إليه؟! هل سيطلب الارتباط؟! ومريم؟! هل يظن أنني من الممكن أن أتخلى عنها؟!لا أظن ذلك.

ضغطت أيقونة الرد وبدأت أكتب:

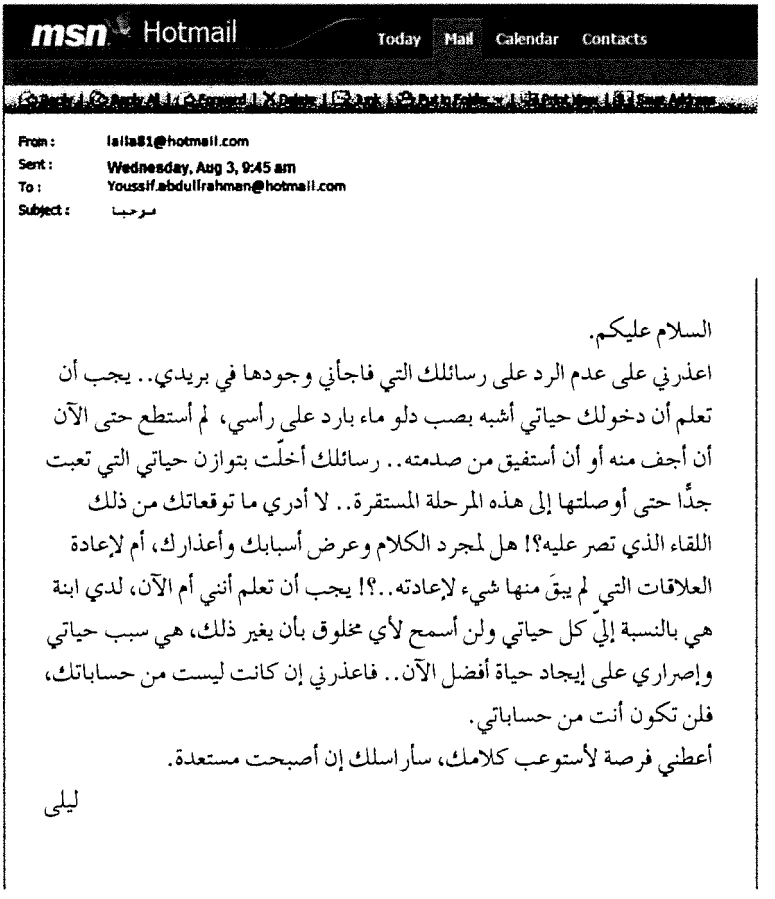

msn Hotmail Today Mail Calendar Contacts

From : laila81@hotmail.com
Sent : Wednesday, Aug 3, 9:45 am
To : Youssif.abdulrahman@hotmail.com
Subject : مرحبا

السلام عليكم.
اعذرني على عدم الرد على رسائلك التي فاجأني وجودها في بريدي.. يجب أن تعلم أن دخولك حياتي أشبه بصب دلو ماء بارد على رأسي، لم أستطع حتى الآن أن أجف منه أو أن أستفيق من صدمته.. رسائلك أخلّت بتوازن حياتي التي تعبت جدًا حتى أوصلتها إلى هذه المرحلة المستقرة.. لا أدري ما توقعاتك من ذلك اللقاء الذي تصر عليه؟! هل لمجرد الكلام وعرض أسبابك وأعذارك، أم لإعادة العلاقات التي لم يبقَ منها شيء لإعادته..؟! يجب أن تعلم أنني أم الآن، لدي ابنة هي بالنسبة إليّ كل حياتي ولن أسمح لأي مخلوق بأن يغير ذلك، هي سبب حياتي وإصراري على إيجاد حياة أفضل الآن.. فاعذرني إن كانت ليست من حساباتك، فلن تكون أنت من حساباتي.
أعطني فرصة لأستوعب كلامك، سأراسلك إن أصبحت مستعدة.
ليلى

عدت لأقرأ رسائله مرة أخرى.. أحملق في الشاشة التي أمامي وأنا أستمع لصوت فيروز وهي تغني.. «كيفك آل عم بيقولوا صار عندك أولاد.. أنا والله كنت مفكرتك برات البلاد.. شو بدك بالبلاد.. الله يخلي الاولاد..» جرتني فيروز لأفكر في الأمر الذي لم أكن أريد التفكير فيه، هل تزوج يوسف؟ هل أنجب أطفالاً؟ هل أحب غيري..

من المؤكد أنه فعل، ولكن ما الذي جاء به إن كان قد وجد حياة أخرى غيري.. هل خاض تجربة فاشلة مثلي..؟ وبعد انتهائها قرر العودة إليَّ..؟

كم يميل قلبي إلى ملاقاته، وخصوصًا بعد كلام خالي عنه أنه تغير، لكن الحيرة في داخلي ما زالت تأكل أجزاءً مني بلا رحمة.. سأستشير زينة في الموضوع لدى عودتها من تلك الإجازة المفاجئة.. لم تكلمني منذ سافرت ولا ترد على اتصالاتي أيضًا.. أظنها في حاجة إلى إجازة مني أنا أيضًا.. أظن أنني من الممكن أن آخذ خالي معي إلى مكان عام؛ فيخبرنا يوسف بما يريد، ثم يترك لنا حرية القرار.. حضّرت أنا ومريم طعام العشاء وجلسنا نشاهد الرسوم المتحركة، أحب دائمًا أن أقضي هذا الوقت معها؛ فأظل أتظاهر بأنني لا أفهم ما يحصل في الحلقة؛ لأدفعها كي تشرح لي تفاصيل القصة، كم أحب أن أراها متحمسة وهي تقف تشرح لي عن الشخصيات وماذا يفعلون، وهي مقتنعة كل الاقتناع بأنني لا أفهم.. كم جميلة براءة الأطفال..

في المكتب، كنت منهمكة في عملي؛ ففي غياب زينة لا يوجد عندي أي سبب لمغادرة مكتبي، لقد مرّ على إجازتها أكثر من أسبوع، لم تحدد مدة الإجازة، قالت إنها ستكون في إجازة نحو أسبوعين أو أكثر، لا أدري ما إذا كانت قد أخذت موافقة جمال على ذلك أم لا..

«ألو.. مرحبًا زينة».

«أهلًا ليلى وما الأمر؟! أهناك شيء يخص العمل؟!».

لم يكن صوت زينة على ما يرام، ثم إنني استغربت رسميّتها معي..

«لا يا زينة، أردت أن أطمئن إليك، أشعر بالوحدة من دونك هنا..».

بعد صمت..

«نعم لا أدري متى سأعود، جدتي في حاجة إليّ في هذه الفترة، آآآه، سأخبرك متى سأعود حين تتحسن..».

«ماذا..؟! كيف تكون جدتك مريضة ولا تخبرينني يا زينة..؟! ما بها..؟! هل ارتفع السكر لديها مرة أخرى..؟!».

«ها!.. لا لا إنها بخير.. لا تقلقي، تحسنت، ولكن أريد أن أكون معها..».

«سآتي لأزوركم اليوم بعد انتهاء الدوام.. أريد أن أطمئن إليها..».

«ماذا؟! لا، اممم، لا حاجة أن تتعبي نفسك؛ فأنا سأخرج اليوم، أحتاج أن أذهب في مشوار مهم».

كانت تلك المرة الأولى التي تقول لي زينة مثل هذا الكلام، أو أنها تكون بمثل هذا الغموض والسرية.. لا أدري ما بها لكنني متأكدة من أن هناك أمرًا تخفيه عني..

«ليلى، يجب أن أذهب الآن، سأكلمك لاحقًا..»، ثم أغلقت الهاتف من دون أن تنتظر مني كلمة مع السلامة.. بقيتُ على الوضعية نفسها وسماعة الهاتف على أذني من أثر الصدمة، ما سبب تهرب زينة مني بهذه الطريقة؟! هل أتوهم هذا الإحساس أم هو بالفعل ما يحصل..؟! ما الذي تخفيه زينة عني؟! هل فعلت لها شيئًا

يضايقها؟!

بقيت محتارة طوال اليوم، كنت أريد أن أعيد الاتصال بها مرة أخرى لكنني تراجعت، قررت أن أفعل ذلك في وقت لاحق، سأعطيها فرصة لتراجع نفسها، ربما ستتصل هي بي لاحقًا.. وبعدما أنهيت عملي، تركت مريم عند أمي وخرجت أنا وسميرة معًا لنشتري مستلزمات السفر، كانت سميرة سعيدة، لكنها لم تستطع أن تخفي الخوف الذي في داخلها من المجهول، كنت أطمئنها طوال الوقت بأنها لن تكون وحدها فهي ستعيش مع صفاء في منزلها، ثم بعد ذلك لو أرادت الانتقال إلى مسكن الطالبات في الجامعة فهي تستطيع، وبعدما انتهينا ولم نعد قادرتين على المشي أكثر، جلسنا في المطعم لنأكل شيئًا ونرتاح قليلًا..

«أخبريني يا سميرة، ما آخر مستجداتكم مع زوجة أخيكِ زينب؟».

«آآآآه يا ليلى، لا تذكريني؛ فالشيء الوحيد الذي يجعلني أنتظر السفر هو أنني سأخرج من المنزل وأتركه لها لتشبع به وتكون سيدته لتفعل ما تريد».

«ماذا تقصدين؟! هل ما زالت على حالها؟! هل تضايق أمي؟!».

«لا تقلقي على أمك؛ فكل ما تفعله زينب تراه أمك صائبًا فهي زوجة ابنها الوحيد وأم حفيدها الأول..».

«إذًا تزعجكم أنتم..».

«نحنُ في حرب مستمرة معها يا ليلى.. لا تتركني، ولا تترك عايشة

ولا حتى دانة الصغيرة في شأنهما.. تقضي وقتها وهي تملأ رأس أخيك بأشياء ليس لها أي أساس من الصحة ليأتي إلينا بالتوبيخ والمنع من الخروج و... و.... و... الأمر لا نهاية له.. فالآن مثلًا نار مشتعلة في بيتنا على أمر سفري وأخوك لا يتوقف عن الصراخ، ولكن لا تقلقي، أبي يوقفه عند حده في معظم الأحوال».

«ما هذه الحياة؟!! وما شأنها بكم؟! وما شأنها في سفركِ أنت وكأنها هي من ستتحمل مصروفاته؟! مسؤوليتها تقتصر على غرفتها وزوجها وطفلها فحسب.. سأعود معك إلى البيت، يجب أن أضع حدًّا لها، من تظن نفسها؟!».

«لا لا لا لا يا ليلى أرجوك.. لا تتدخلي أنتِ؛ فهي تكنّ لك الكره من دون أسباب! لا أريد مشكلات، دعيها تفعل ما تريد، إن عقلها صغير جدًّا يصعب التفاهم معها، أنت لم تعيشي معها في بيت واحد، إنها لا تُحتَمل وأنتِ لن تحتمليها وستتشاجران بسببي».

«كفاكِ سلبية يا سميرة، لست مجنونة؛ فلن أتشاجر معها فجأة ومن دون سبب، أريد أن أجعلها تفهم أن لا دخل لها لا بكِ ولا ببقية إخوتي.. يجب أن تفهم أن لها حدودًا في المنزل..».

تزوج جابر من زينب زواجًا أكثر من تقليدي، كانت هي في السابعة عشرة، وهو في الثامنة عشرة، زواج أطفال كما أصفه أنا، لكنه في نظر أبي كان في مقام ملء وقت أخي بالمسؤولية وتكوين عائلة له فلا يكون هناك مجال له ليصبح فريسة سهلة لأصدقاء السوء الذين كادوا يجرونه إلى أبواب لم يكن معروفًا ما خلفها عدة

مرات.. عاشت زينب في منزل أهلي؛ لأن جابر لم يكن في الحالة المادية التي تسمح له بأن يفتح وحده بيتًا، كيف له وهو بعد تخرجه في الثانوية توظف في عمل حكومي أكثر من بسيط ثم تزوج على الفور، فلم يكن هناك وقت كافٍ له ليجمع مبلغًا للزواج ولم يكن له أي رغبة ليكمل دراسته فيصبح له ولو فرصة ليطور نفسه ووضعه؟!

حين عدت أنا وسميرة إلى المنزل، تناولنا طعام العشاء الذي حضّرته لي أمي بنفسها، كل ما أحب أن آكل، فطائر السبانخ شوربة الدجاج والأرز المطبوخ بخلطة أمي التي لا يعرف أحد سرّها، مع الدجاج المشوي.. لم يعلمني أحد الطبخ إلا هي، لكنني لن أصل إلى مستواها مهما حاولت.. حين تُعد أمي لي مائدة كهذه، تشعر أخواتي بالغيرة، وكل واحدة منهن تحاول إثارة غضبي بمزاحات ثقيلة: «أمي لا تحضر كل هذه الأطعمة إلا إذا جاءت ليلى لعندنا»، أو «يا ليت ليلى كل يوم عندنا حتى تطبخ لنا أمي كل هذه الأطباق».. كنت أضحك لأني أعلم أنهن لا يقصدن مضايقتي أو إثارة غضبي، ولكن حين تكلمت زينب أمام جميع العائلة الملتئمة حول المائدة: «كيف لها أن تعيش عندنا وقد عاشت حياة من دون رقابة لتفعل ما يحلو لها، حالها حال أي شاب... والآن تريد أن تجر أختها لتعيش الحياة ذاتها...».

حل الصمت حول المائدة، من شدة صدمتي احتجت أن أسكت لأتأكد من أنها قالت ما ظننت أنني سمعته، لم يرد أحد على ما قالته، وأخي لم يعلّق ولم يقل شيئًا، لم يوبخ زوجته لما قالته وهي

تغلط في حق أختيه، إما أنه لم يسمع وإما لم ينتبه وإما لم يهتم....!
بقيت أنظر إليه ليتكلم، لكنه استمر في الأكل وكأن شيئًا لم يكن، وكذلك أمي وأبي.. لم يتكلم أحد..

«هل تعلمين.. لن أرد عليكِ فأنتِ أقل مستوى مني بمراحل، تحاولين لفت نظر أي كان يا مسكينة ولكن حتى زوجك المصون لم ينظر إليك؟!!».

قال جابر: «ليلى...».

«الآن قررت أن ترد، لم أسمعك تتكلم حين شككت زوجتك بأخلاقي وأخلاق أختك..».

«هي لم تقصد شيئًا.. لا تكبري الأمور ودعينا نأكل بسلام».

كنت وكأن نارًا تريد أن تشتعل في داخلي، لكنني احترمت وجود أمي وأبي اللذين يجلسان أمامي وقد بدآ يستاءان من الموقف.. في السابق كنت لا أستطيع كبت غضبي، كنت أبكي على أتفه الأسباب، أي كلمة تجرحني، وكل تعليق يهزّ ثقتي بنفسي.. أما الآن فأنا مختلفة جدًّا؛ أستطيع بكل سهولة أن أسيطر على انفعالاتي، علمتني الحياة أن أحجب غضبي ولا أعطي الأمور أكبر من حجمها إن كانت لا تستحق ذلك.

«صحيح؛ هي لم تقصد شيئًا، لكنني أحذرها إن سمعت أنها تدخلت في أمر أيّ من إخوتي، لا تلوم إلا نفسها وسيكون حسابها عسيرًا معي أنا شخصيًّا..».

لم يرد جابر، وحتى هي، اكتفت برسم ابتسامة خبيثة على وجهها؛ فقد صورت لها عقليتها السطحية أنها انتصرت في الجولة الأولى من الحرب وأنها تتكلم من مصدر قوة فزوجها يجلس إلى جانبها ومستعد للدفاع عنها..

أكملت وجبتي حتى لا تشعر أمي بأنني تضايقت؛ فلا أريد أن أكون سببًا في مشكلة جديدة كلما جئت إلى البيت.. وبعدما انتهينا، تركت المجلس وذهبت لآخذ أغراضي وأرحل، لحقتني سميرة إلى الغرفة:

«لا تكترثي لها يا ليلى، أرجوك.. لا تدعيها تضايقك..».

«إنها مستفزة إلى أبعد الحدود كما قلت وأكثر.. الحمدلله أنني استطعت أن أتمالك أعصابي أمام أمك... سميرة أرجوك، اذهبي وأحضري مريم، يجب أن أذهب ولا أريد أن أراها مرة أخرى».

وقبل أن تخرج سميرة، وجدنا زينب تقف على باب الغرفة، في الوهلة الأولى ظننت أنها جاءت لتعتذر، لكنني دائمًا سأبقى حسنة النية حتى للناس التي لا تستحق ذلك..

وضعت يديها على خصرها وبدأت تتراقص أمامي وتشوح بيدها الأخرى لتثبت لي أنها ليست خائفة من تهديدي:

«هل تظنين أنني خائفة منك يا ليلى أو من تهديدك، لا يا حبيبتي، أنا متزوجة وأعيش في منزل زوجي، لست مثلك أعيش وحدي وأتنقل من رجل إلى رجل.....».

لم تكمل جملتها حتى انقضضت عليها كالأسد الذي وجد فريسته بعد طول بحث، لكل شيء حد، ويجب أن تعرف حدّها هنا.. كم أردت أن أنشب مخالبي فيها منذ الكلمة الأولى التي نطقت بها أمام أمي وإخوتي، لن أرحمها وقد تملكت بها، بدأت بشد شعرها حتى تخرس لسانها، وبدأت تصرخ بصوت بشع لتسمع كل من في المنزل، جاء جابر يركض واستطاع أن يفلتها من يدي بأعجوبة بعدما تلّقى مني هو الآخر صفعات لمحاولته إفلاتها مني.

«توقفا!!!!! أنتما الاثنتان!!!!!!» صرخ جابر.... «ما بكما!!! هل أنتما أطفال؟!».

ظلت زينب تقفز في مكانها وتصرخ من شدة الغضب وكأنها شعلة من نار، شعرها منفوش كالشّرار ووجهها أحمر من صفعاتي: «ستندمين على ما فعلته أيتها الفاسقة وأنتَ أيضًا يا شبيه الرجال! زوجتك تُضرب وتُهان وأنت لا تفعل شيئًا لا تستطيع أن تحكم حتى أختك.....!!».

لم أتخيل لحظتها ما حصل، صفع جابر زينب صفعة حتى شعرت بأن رأسها دار حول رقبتها... وكل من في الغرفة وضع يده على فمه في اللحظة نفسها لنكتم صرختنا..

أخذت حقيبتي وسحبت مريم، ثم ركضت إلى الباب، غادرت المنزل حتى لا يحصل أكثر من الذي حصل، لم أتوقع من جابر أنه يستطيع أن يمد يده على أحد؛ فهو المسالم بيننا، المسالم أكثر من اللازم، الذي لا يثير غضبه أي شيء، لم أعرف كيف يفترض

أن أشعر تجاهها بالغضب منها ومن كل الكلام الجارح الذي قالته عني، أو بالشفقة عليها من تلك الصفعة التي تلقتها أمامنا جميعًا، ولو أنها كانت تستحقها؛ فصفعة الوجه تسبب الإهانة التي في إمكانها تحطيم الإنسان من الداخل، بالذات إن كان هذا الإنسان لا يجد من يدافع عنه ويقف إلى جانبه، إنها تهين الإنسان فلهذا حذر منها رسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم.

ومرت أربعة أشهر وأنا على هذه الحال التعسة، كنت أشعر بأنني أعيش من دون روح، لم يعد قلبي يشعر بأي إحساس، لم أعد أشعر بنبضه في داخلي.. أصبحت كالجسد بلا روح، لا شيء يسعدني، ولا شيء يستحوذ على اهتمامي؛ لقد فقد كل شيء أمامي لونه، أنظر إلى حياتي مع مبارك ولا أرى أي ضوء لأي مستقبل أو سعادة أو أمل.. فلم أكن أريد إنجاب طفل ليكون مبارك أبًا لها أو له؛ فهو لم يكن لي زوجًا فكيف له أن يكون أبًا؟!

ضاقت بي الحال، وكلما حاولت أن أكلم أمي في الموضوع وأطلب منها النصيحة في ما عليّ أن أفعل وكيف عليّ التصرف في حالي مع مبارك، كيف يمكن أن أحبِّبه بي وكيف أستطيع التواصل معه.. كانت تصبّرني بأن جميع الرجال بهذه الطريقة، وأنه مع الأيام ستتحسن أمورنا وسنتفاهم أكثر، وعندما يرزقنا الله أطفالًا سيتغير، فالأطفال هم الذين يغيرون الرجال، كنت أسمع من أمي النصائح ذاتها كلما اشتكيت حالي، حتى أصبحت لا أتكلم

لأنني أعرف حق المعرفة ردودها التي بالنسبة إليّ كانت آمالًا لا أرى لها حظًا بالتحقق..

كان الصمت هو الصوت الوحيد الذي أسمعه في البيت أثناء النهار، إلا في الأيام التي كانت تأتي فيها أخت مبارك وأطفالها السبعة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزلنا في الأيام التي يسافر فيها زوجها في رحلات العمل.. ظننت أن بسمة ستكون اسمًا على مسمّى كالبسمة، لكنها كانت عكس ذلك؛ فقد كانت دائمة العصبية، عاقدة الحاجبين، فاتخذ العبوس من وجهها منزلًا له.

كان أطفالها كالشياطين الصغيرة؛ يركضون في المنزل طوال النهار والليل، يكسرون كل ما يقع تحت أيديهم، يأكلون نصف الطعام ونصفه الآخر يرمونه في أرجاء المنزل، لم أكن أنظف أي شيء لأن لا فائدة من ذلك، كنت أنتظر اليوم الذي يرجعون فيه إلى منزلهم ليعم الهدوء الذي لم أكن أشعر بقيمته إلّا حين يخرجون.

لم أكن أحتك بهم قط، فقد حاولت مرة أن أوبِّخ أحدهم، وجاءتني أمهم المصون لتوقفني بحجة أن هذا منزلها ومنزل أخيها قبل أن يكون منزلي، ولا يحق لي قول أي شيء، لم أكترث لها حينها؛ لأنني كنت أشعر بأنه ليس منزلي، لكنها ذات مرة تعدت كل الخطوط الحمر بيننا وجاءتني ووجهها يشتعل غضبًا تصرخ باسمي بصوت عالٍ لتسمع أخاها الذي كان يشاهد الأخبار بينما

كنت أنا في المطبخ مع الخادمة التي تجلس إلى الطاولة تضع إحدى رجليها على الأخرى لأن "مدام" قالت لها أن لا دخل لها في أي من أمور المطبخ.

خرجت يومها لأرى ما بها، لِمَ تنادي بهذه الطريقة وكأن الدنيا على وشك الانتهاء.. أتذكر صوتها جيدًا: "أين عقدي؟! أين عقدي.. أيتها السارقة.. أين عقدي؟!" لم أستوعب ما الذي ترمي إليه إلا بعد فترة، وقفت مشدوهة أمامها لا أعرف بماذا أرد: "ما أدراني أين عقدك؟! وكيف لي أن أعرف؟!".. بالصوت العالي نفسه ونبرة الاتهام وكأنها رأتني بعينيها آخذه: "أخرجيه الآن، وضعته في المرة الماضية التي أتيت إلى هنا، والآن لا أجده.. من غيرك في المنزل..؟! أخرجيه الآن.. أريده وإلا سأتصل بالشرطة"، جاء أخوها ليستمع إلى ما تقوله أخته وبقي ينظر إليّ ليرى ما ردّي، كان ينتظر مني أن أخرج العقد من جيبي، وقف الاثنان يستجوباننني وكأنني الخادمة الغريبة التي لا شك في أنها سرقت: "لم أرَ عقدك ولم أدخل غرفتك، كل ما فعلته أني رتبتها بعدما عدتم إلى منزلكم.. هل جننت باتهامي بسرقته؟! ما حاجتي إليه من الأساس..؟!" بقينا في ذلك الحوار طويلًا وهي تريد أن تتصل بالشرطة وأنا مازلت إثر الصدمة التي لا يمكن أن أستوعبها.. انهمرت عيناي بالدموع على الرغم من محاولاتي إيقافها، لم أكن أريد أن أبدو ضعيفة أمام هذين.. شعرت بقمة الإهانة والضعف، وجهت كلامي إلى

مبارك: "أختك جنت أقسم بالله، لم أرَ عقدها ولم ألمسه.. هي مجنونة وكاذبة.. صدقني.."، وبهدوء كهدوء الجبل، نظر إلى أخته وقال لها: "هل أنت متأكدة؟!".. صرخت أخته: "بالطبع، متأكدة، من غيرها محتاج إلى عقد كعقدي الذي لم ترَ ولن ترى شيئًا مثله في حياتها..؟! لا أدري لِمَ زوجناك هذه الأشكال يا أخي.."، وهي تقول هذه الكلمات، نظرت إليها وصفعتها بيدي حتى تركت آثار أصابعي على خدها.. لم أشعر بنفسي وبما فعلت، لكنني ارتحت حين فعلتها؛ فكان ذلك الشيء الوحيد الذي أخرس لسانها، إلّا إنني لم أفرح طويلًا حتى غافلني مبارك بصفعة أسقطتني أرضًا من دون أي وجه حق: "هل جننت تمدين يدك على أختي وأنا واقف أمامك يا معدومة الاحترام..؟!" وانهال عليّ بضربات حتى أمسكته أخته ليتوقف، كانت تلك المرة الأولى التي يمد فيه مخلوق يده عليّ، لم يفعلها أبي حتى وأنا طفلة.. كان ذلك الموقف القشة التي قصمت ظهر البعير، مع بكائي وشهقاتي ركضت إلى غرفتي لأتصل بخالي وطلبت منه الحضور في التو، وضعت وجهي على المخدة وصرخت لأخرج غضبي عليها، شعرت بالضعف، بالانكسار، بالإهانة التي لم أشعر بها في حياتي، وصلت إلى الحضيض الذي في حينه شعرت بأن الموت أرحم لي من هذه الحياة.

لم تمر ساعة حتى سمعتُ صوت خالي من الأسفل، أخذت حقيبتي وبعض أغراضي وتركت كل شيء: عطوري، ذهبي، كل ملابسي، لم

أهتم بأي شيء إلا أن أخرج من ذلك المنزل.. وبعد صراع وشجار بين الاثنين: مبارك وخالي، أخذ خالي بيدي إلى خارج المنزل رغمًا عن أنف مبارك، مهدّدًا إيّاه إن لم يطلقني فلن يحصل أي خير.. لم أنظر خلفي حتى، بمجرد أنني دخلت السيارة، انفجرت بالبكاء حتى وصلت إلى المنزل: "لا تبكي يا غبية.. لا يستأهل أي دمعة من دموعك"... دخلت غرفتي ودخل ورائي جميع من في المنزل: أبي وأمي وإخوتي، أبي يصرخ ويطلب من خالي أن يأخذه إلى بيت مبارك في التو ليلقنه درسًا، أمي تسألني ما الذي حصل بالضبط ولِمَ مدّ مبارك يده علي، إخوتي يقفون في ركن الغرفة خائفين ومصدومين من شكلي وبكائي: "يطلّقها غدًا، لا ينتظر ولا دقيقة، لن تعود إليه" يقول أبي، ويوافقه خالي وجابر أخي، لم أتكلم طوال وجودهم حولي، كنت في وقع الصدمة، كان تعب جسدي وألم أعضائي من لكمات مبارك لا يضاهيان الألم الذي كان في داخلي.. كنت أشعر بنار في داخلي، نار الإهانة، نار الغضب، نار حزن، كنت أشتعل في داخلي، ومهما حاول من حولي تهدئتي فلن تنطفئ تلك النار.

تركوني حتى أرتاح بعدما مسحت أمي بيديها على رأسي وقرأت آيات من القرآن لأتوقف عن البكاء وأهدأ وأستطيع النوم.. تظاهرت بالنوم ليتركوني لأنني لم أكن بالحالة التي أجيب فيها عن أي سؤال أو أخبرهم بأي تفاصيل.. دموعي لم تتوقف حتى شعرت بأنني لا أستطيع النوم على مخدتي من البلل الذي

تسببت به دموعي، شعرت في تلك اللحظة بأن الذين يشبِهون كثرة البكاء بأن الإنسان غرق في بحر من دموعه، ليس تعبيرًا مجازيًّا أو مبالغًا فيه، بالفعل رأيت التشبيه حقيقة.

وفي منتصف الليل، شعرت بألم فظيع في بطني لم أستطع تحمله، ناديت سميرة أختي لتنادي أمي التي جاءت مفزوعة، تسألني أسئلة لم أستطع الإجابة عنها من شدة ألمي وخجلي أمام أبي، ذهبت معها إلى المستشفى، وبعد الفحوص سمعت الخبر الذي كنت أريد الموت على أن أسمعه.. دخلت الطبيبة عليَّ وأنا في سرير الغرفة وأمي إلى جانبها، أذكر ابتسامتها التي يفترض أن تكون دليلًا على خبر جميل مبهج، أخبرتنا أن روحًا أخرى بثت في داخلي: "مبروك.. أنتِ حامل".. دموعي سبقت لساني لتتكلم وتعبر عن حزنها وألمها بالفاجعة التي سمعتها..

كيف أحمل في داخلي شيئًا يربطني بذلك الوحش حتى الأبد؟! كيف سأستطيع أن أنظر إليه وأتذكر وجهه في ملامح الطفل أو الطفلة..؟! سألت الطبيبة للمرّة الألف: "هل أنت متأكدة..؟! ربما نستطيع أن نتخلص منه.. لا أريده.. أخرجيه من داخلي"، انهرت أمامها وبكيت وأمي إلى جانبي تطلب مني أن أهدأ وأصلّي على رسول الله، أما أنا فكنت في حالة هستيرية.. كيف حصل ذلك وأنا كنت أتجنبه بقدر ما في استطاعتي؟! كم دعوت الله في كل صلاة ألا يحصل ذلك، لِمَ يكون مبارك والدًا لطفل لي؟!: "لا أريد يا أمي لا أريد.. أنا لست أمًّا.. لست أمًّا لا أريد طفلًا".

غابت ابتسامة الطبيبة المسكينة وحاولت بطريقتها أن تحببني بالأمر وتهدئني: "ستصبحين أمًا يا ليلى، أنت في شهرك الثاني.. هذه مشيئة ربك أن تكوني أمًا لطفل جميل مثلك.. سآخذك الآن لتسمعي نبضه وسيتغير رأيك".

وكما قالت.. سمعت نبضًا آخر غير نبضي ينبعث من سماعة الطبيبة.. دقات قلب صغيرة، وأرى قطعة صغيرة تتحرك في الشاشة أمامي، في تلك اللحظة بالذات كانت الفرحة سبب انهمار دموعي، تغير تفكيري، أصبحت أريد أن أعيش للشيء الذي في داخلي.. أحببته قبل أن أراه.. أردت أن تكون له حياة سعيدة، أردت أن أكون سعيدة لأستطيع أن أسعده.. حين سمعت دقات قلبه شعرت وكأنني أراه أمامي، لم أكن أعرف ما إذا كان بنتًا أو ابنًا، لكنني رأيته أمامي، قطعة مني، دمه دمي، سيكبر في داخلي ليكون لي ابنًا أو ابنةً، تلونت الحياة أمامي بألوان أخرى، ألوان طفلي الذي في داخلي، شعرت بقوة تنبعث من داخلي، لم أعد أشعر بالانكسار والإهانة، كل ما كنت أريده أن يطلّقني مبارك ويترك لي حضانة الطفل، لم أكن أريد منه أي شيء، لا نفقة ولا مصروفًا، أن يتركني ويترك ابني أو ابنتي لي فحسب.. لم يكن خبر حملي بالخبر السعيد لأي من أفراد العائلة، نظرة الأسى والشفقة لم يستطيعوا أن يخفوها: "لا تقلقي يا ابنتي، سنتدبر الأمر".. وحين أخبرت أبي بقراري ورغبتي في الانفصال، حاول هو وأمي إقناعي بالتراجع الآن وقد أصبح هناك طفل يربطنا،

ولعله يتغير وربما سيشعر بخطئه وسيعتذر.. لم أتخيل أنهما من الممكن أن يرجعاني إلى بيت ذلك الرجل وقد فعل بي ما فعل.. لم أكترث لما يقولان، ذهبتُ إلى خالي؛ هو الوحيد الذي كنت أشعر بأنني أستطيع الاعتماد عليه في أمور كهذه، وبالفعل، لم يخيب ظني، ذهب إلى مبارك، وبعد مشاجرات طويلة دامت أسابيع لم أعد أشعر بعددها.. ومبارك مُصرّ على أن أعود معه، وبعد الرفض القطعي مني، ذهب إلى المحكمة وطلّق، كنت في شهري الخامس، وقد علمت أن ما في داخلي فتاة، فتاة تقاسمني الطعام والشراب، فتاة تنمو في داخلي وتكبر لتتكوّن لها يدان وقدمان، فتاة ستقاسمني الحياة لنعيشها سويًا بحلوها ومرها.. حين جاء خالي بورقة طلاقي ضممته بقوة؛ فلم يقف معي أحد في هذا الموضوع مثلما كانت وقفته هو، شعرت بأن قيدًا حول عنقي قد فُك أخيرًا واستطعت التنفس.. نظرت إلى بطني ووضعت يدي عليه وتمتمت قائلةً: "أخيرًا أصبحنا وحدنا يا ابنتي.." .

بعدما صفا ذهني من أمر مبارك، بدأت التفكير في طريقة أستطيع بها أن أدبر أمري وحياتي الجديدة، من أين سأصرف فأبي لا يكاد يستطيع تدبير أمور إخوتي، فما عساه أن يفعل الآن وقد زاد فرد آخر على حمله..؟! كنت أرى أن نظرة الهم قد بدت أكثر وضوحًا يومًا بعد يوم كلما كان يرى بطني يكبر أمامه، أما أمي فهي منبع الحنان ومصدر الطمأنينة، في الوقت الذي

سرق هم المسؤولية الطمأنينة من أبي.. ومع كل الذي حصل والمعاناة التي مررت بها وأنا لم أكمل حتى التاسعة عشرة من عمري، لم يتركني أحد في حالي، فمن حولنا من أهل، أقرباء، معارف، جميعهم كانوا يزيدوننا حملًا فوق حملنا؛ فالنساء يأتين لزيارتنا لينظرن إليّ وقد كبر بطني أمامي ويحاولن أن يقدمن ما يسمينه تعاطفًا: "آآه يا ابنتي يا مسكينة، لا تستحقين ما حصل لك"، "ما زلت صغيرة لتُطلّقي مرتين وتحملين أيضًا"، "كيف ستدبرين أمر طفل وحدك، أعانك الله؟!"... وتزيد الكلمات، والمواساة، وكأنني اخترت لحياتي أن تكون بتلك الطريقة.. سئمت الناس وكلام الناس الذي أصبح كالأسنان التي تنهش لحمي، لم أعد أستطيع التفكير بشكل سليم، حتى وإن بقيت في غرفتي وحدي، لا أكاد أهدأ حتى تأتي أمي لتجبرني على أن أخرج لأسلم على من في بيتنا من نساء.

كنت في تلك الفترة أفكر في يوسف كثيرًا وألومه كل اللوم على الألم الذي أشعر به الآن، وكلام الناس من حولي، وحملي من إنسان لم تربطني به أي مودة، كل ذلك كان بسببه وبسبب ما فعله بي وتركه لي وتخليه عني في لحظة ضعف لم أفهمها حتى الآن.. كنت أحكي لابنتي كثيرًا عنه وعمّا كان بيننا، لأنني لم أكن أجرؤ حتى على ذكر اسمه أمام أي كان..

لم تتركني صديقتيّ مها ونورة، أما صفاء فقد سافرت إلى بلادها لتكمل تعليمها الجامعي.. كانت الاثنتان تحاولان إقناعي بأن

من الممكن أن نفعل شيئًا ليعود يوسف، واقترحت عليَّ نورة أنها مستعدة لأن تتصل به وتكلمه وتخبره بأنني طُلّقت وأن ما فعله لا يُغفر ولكن من الممكن أن نصلح ما حصل.. هما تقترحان وتخططان وتنتظران مني القبول، أما أنا فقد عفت رجال العالم، كنت أشعر بأن لا أمان مع أي منهم، فمن أحببت تركني، ومن لم أحب كرهت معاشرته وتمنيت الموت على البقاء معه.. قلت لهما أن تنسيا ما تفكران فيه، وأن تساعداني على العثور على وظيفة أيًّا تكن، فهذا ما أحتاج إليه الآن، لا أريد زوجًا ولا حبيبًا، أريد أن أربي ابنتي وأعيش لها لا لنفسي.

صديقتيّ بالنسبة إليّ كالحضن الدافئ الذي أستطيع أن ألجأ إليه ولا أخاف أن يصدني حتى وإن كنت في أسوأ حالاتي.. لا أخاف أن تفهماني بشكل خاطىء، لا أحتاج أن أحاسب على طريقة كلامي معهما، كنت أعرف أنهما ستكونان إلى جانبي حتى وإن كنت على خطأ.

انطلقت الاثنتان تبحث كل منهما لي عن وظيفة تقبلني بشهادة الثانوية، ومن جهتي طلبت من خالي أيضًا أن يبحث لي عن عمل، أي عمل، المهم ألا أبقى في المنزل بين خيارين لا ثالث لهما، إما أن أكلم جدران الغرفة الأربعة وحدي، وإما أن أستسلم لكلام صديقات أمي طوال النهار، وهنّ إما يتكلمن عن ناس لا أعرفهم وإما يتوجهن بالكلام عني وعن حالي المثير للشفقة.

ازداد إصراري للعثور على عمل بعدما بدأ الرجال من معارفنا

بالتقدم لخطبتي، مع كل ما أنا به، على الرغم من أنني مطلّقة مرتين، لم يكن ذلك مانعًا قويًا لمن حولنا، وما زاد الأمر سوءًا وزادني صدمة فوق صدمتي تقبُّل أمي وأبي، يعرضان عليَّ الأمر وكأنه من الطبيعي جدًا أن أوافق على الزواج مرة ثالثة في وقت لم يتجاوز عامًا: "لماذا يا أمي؟! لماذا تريدان فعل ذلك بي مرة أخرى..؟! ألا يكفي ما حصل..؟!"... "يا ابنتي؛ الرجل للمرأة ظهر، إن كان رجلًا طيبًا، فلِمَ لا؟!".. "أي ظهر يا أمي، أنا من كُسر ظهري بسببكم ولم أرَ شيئًا من الدنيا بعد".

لم أفهم تفكير أمي وأبي، لم أفهم ما نظرتهما إلى الرجل وكيف تأتي أهميته في حياة الفتاة لمجرد أنه رجل ويملك ذلك وذاك.. ازداد عدد المتقدمين بشكل أيضًا لم أفهمه، أفهم أن أبي محبوب جدًا من معارفه وجميع من حوله يريد مناسبته.. أفهم أنني كنت على قدر من الجمال الذي يُلفت نظر النساء والأمهات، لكنني كنت مطلّقة وأحمل طفلًا بين أحشائي، لكن ذلك لم يكن صامدًا ما يكفي على ما أظن.

عدت إلى منزلي حزينة بعد المشكلة التي تسببتُ بها في منزلنا، كنت أريد أن أقضي وقتًا طيبًا مع أختي وأمي، لِمَ حصل ما حصل؟.. طلبت من مريم أن تتجهز للنوم، أخذت سماعة الهاتف غير مرة أردت أن أتصل بزينب لأعتذر منها، لكنني أعلم أنها سترفض أن تكلمني وهي في تلك الحالة، أتمنى أن يهدأ جابر أخي ولا تكبر

القصة أكثر.. ثم تذكرت أن عيد ميلاد مريم سيصادف بعد غد.. فقررت أن أدعوها إلى الحفلة التي سأقيمها هنا في منزلي، وربما تنسى ما حصل بيننا.

ذهبت إلى مريم وهي في سريرها.. وكالعادة قبّلتها وقرأت آيات من القرآن عليها وابتسمت ابتسامة ماكرة:

«ما الأمر ماما..؟!».

«هل تعرفين ماذا بعد غد...؟!».

«لا... ماذا...؟!».

«عيد ميلادك يا حبيبتي.. كبرتِ يا مريم وسيصبح عمرك خمسًا بعد غد.. هل تصدقين...لأنني لا أصدق ذلك..؟!».

«ياااااي.... هل سيكون هناك حفلة كعكة وهدايا!!!؟!» وبدأت بالقفز على السرير، وبدأت أندم لِمَ أخبرتها بالأمر فلن أستطيع أن أعيدها إلى النوم ثانيةً.

«نعم نعم؛ اهدئي، سيكون هناك كل شيء.. هدايا وكعكة كبيرة مكتوب اسمك عليها.. سندعو جدك وجدتك وخالاتك ما رأيك؟!».

«ياااي.. والخالة زينة نسيتِها..»، لم تنسَ مريم زينة فهي أم أخرى لها.

«نعم والخالة زينة أيضًا إذا كانت موجودة... ربما أدعو الخالة مها ما رأيك...؟!».

«نعم نعم»، بابتسامة كابتسامة الإعلانات.

وأخيرًا كان اليوم التالي عطلة نهاية الأسبوع، لا دوام ولا نهوض من الصباح الباكر للذهاب إلى الجحيم.. تناولت ومريم الفطور بهدوء ومن دون الحاجة إلى الركض حتى نستطيع الوصول في وقت الدوام والمدرسة.. ثم خرجت معها لنحضر للحفلة المنتظرة، مرَرنا أولًا بمنزل أهلي بأمر من مريم وأخذنا معنا أختي دانة، وهي تصغر مريم بسنة، والاثنتان أكثر من الأخوات تتشاركان كل شيء وتتقاسمان كل شيء.

وفي هذا العام، قررت مريم أن تكون في الحفلة أميرة البحر، فاشترينا لها كل ما وجدته مرسومًا عليه أميرة البحر، ثم أخذتهما الاثنتين وتناولنا المثلجات.. ونحن في محل البوظة لمحت زينة من بعيد، تركت مريم ودانة في مكانهما وركضت إلى من رأيتها تشبه زينة.

«زينة....!! زينة...».

التفتت ونظرت إليّ مجبرة وكأنها لا تريد ذلك:

«ما بك يا زينة... لِمَ لا تريدين رؤيتي إلى هذه الدرجة..؟! هل فعلت لك شيئًا..؟! هل غلطت في حقك..؟!».

«لا يا ليلى لم تفعلي شيئًا.. أنا؛ الغلط فيّ أنا، لا أريد أن أتكلم أرجوك».

«زينة أنت مثل أختي، بل أنت أكثر من أختي، وأنت تعرفين ذلك تمامًا.. تستطيعين أن تقولي لي أي شيء ما بك...؟! ما الذي

حصل..؟!».

نظرت إلى الوراء؛ رأت أن معي مريم ودانة: «اسمعي الوقت غير مناسب، أنهي ما عندك، سنتكلم لاحقًا أعدك..».

«متى؟! غدًا عيد ميلاد مريم، تريدك أن تكوني موجودة.. اعتدنا أن تكوني موجودة».

بدا على وجهها البؤس وهي تنظر إلى الوراء لترى مريم تلوح لها بيديها من بعيد.

«سأحاول؛ أعدك.. ستعرفين كل شيء، ربما ليس مني، ربما من أحد آخر ستعرفين...».

«من آخر..؟! لِمَ لا أعرف منك..؟!».

«سأخبرك، أعدك، ولكن ليس الآن أرجوك».

وقبّلتني على خدي قبلة سريعة واختفت بين المباني حتى قبل أن تخبرني ما إذا كانت ستأتي غدًا أم لا... يا ترى ما بها؟! ما الذي تخفيه ولا تستطيع إخباري به إلى هذه الدرجة؟! ولِمَ السرية؟! لم أعتد أن تكون زينة هكذا؛ دائمًا تقول ما يخطر في بالها.. لو جلست أمامي ثابتة دقائق لعرفت ما تخفيه، أظنها تعرف ذلك لهذا تتجنبني.. هل عادت لترى أسامة بعدما حذرتها منه..؟! هل لهذا تتجنبني لأنها تعرف كم سأوبخها..؟! ولكن لا، يستحيل ذلك.

أعدت دانة إلى المنزل وأخبرتها أن تخبر أبي ألا يتأخروا غدًا.. وفي طريقي إلى المنزل.. مررت ببيت مها بعدما اتصلت بها لأخبرها

بمجيئي، أردت أن أكلمها عن الرسائل التي تمت بيني وبين يوسف وأن تخبرني بما يجب أن أفعل، وفي الوقت نفسه، أردت أن أطلب منها الحضور غدًا إلى الحفلة:

«كيف حالك يا صديقتي...؟».

«أهلًا، أهلًا، تفضلي حياك الله... أهلا بالجميلة مريم، كيف حالك؟!».

«غدًا عيد ميلادي واشترينا أشياء كثيييييييييرة...» كان حماس مريم لا يمكن إيقافه.

«واو كم سيصبح عمرك أخبريني؟».

أشارت مريم بأصابعها الصغيرة: «٥».

«كم كبرتِ يا مريم....» ونظرت إلى مها وفي عينيها كلام كثير.

«مريم ما رأيك أن تشاهدي التلفاز هنا بينما أتكلم أنا والخالة مها قليلًا؟!».

همست لي مريم: «لا تنسي أن تخبريها بأن تأتي إلى حفلتي غدًا».

ضحكت لأن صوت مريم يكاد يسمع من يجلس على بعد كيلومترات بعيدة... «حسنًا لن أنسى».

أخيرًا جلست ومها في المجلس نحتسي الشاي بهدوء:

«ما بك يا مها، لا تبدين بخير...؟!» وقبل أن تفتح شفتيها قاطعتنا أم مها، داهمتنا في المجلس، قمت من مكاني وسلّمت عليها وقبّلت رأسها، مر وقت طويل على آخر مرة رأيتها فيها.

«خالتي كيف حالك...؟! وما أخبارك؟!».

«اسمعي يا ابنتي، أرسلك الله إلينا لسبب...».

وبدأت مها بالنظر بعيدًا وعلامات الاستياء بدت على وجهها.

«ما الأمر؟! أشعر بأن هناك أمرًا ما، أخبريني يا خالتي».

«إنها صديقتك، ترفض الزواج بكل من تقدم إليها، ومن دون سبب، لا أعلم ما الذي تريده وماذا يرضيها..».

وبفرحة وابتسامة عريضة قلت: «هل هناك عريس جديد؟!».

«ابن خالتها، رجل مؤدب، خلوق، ليس عليه أي كلام، يعمل في شرطة العاصمة، مقتدر، عيبه الوحيد الذي لا أراه عيبًا يستحق الرفض لأجله؛ أنه لم يكمل تعليمه الجامعي، أخبريني يا ليلى، هل هذا عيب يرد لأجله رجل؟!».

نظرت إلى مها.. ثم أجبت الخالة:

«لا يا خالتي، لا أراه عيبًا، ما دام للرجل وظيفته وما دام قادرًا على إعالة أسرته وفتح منزل لها والقيام بواجباته، بالإضافة إلى أخلاقه ودينه. فهو كما تقولين ذو دين وأخلاق عاليين. فلا أرى أي سبب للرفض، لكنني أريد أن أسمع من مها..».

وبعد موجة من الأفأفات والنظر إلى السقوف وعد أضواء الثريا جميعًا أجابت مها:

«لم أرتح إليه؛ هذا سبب كافٍ لأرفضه، لا أراني أتزوج إنسانًا لم ينهِ تعليمه الجامعي وأنا أجهز لإنهاء الماجستير وبعدها الدكتوراه

بإذن الله، فإذا تزوجته لن يكون هناك أي عامل مشترك ولا أي لغة حوار بيننا.. لهذا لا أريد».

«يا ابنتي أنا تعبت، أريد أن أراكِ مرتاحة.. إلى متى ستظلين ترفضين العرسان الواحد تلو الآخر وتقولين الكلام نفسه...؟!».

«يا مها إن الأمور لا تقاس بالشهادات ولا بدرجات التعليم، يجب أن تعطي نفسك فرصة لأن تري هذا الشخص، تتكلمي معه، لربما ارتحت له وذهبت كل تلك الأوهام والخيالات التي في عقلك.. من يدري؟! ربما كان مثقفًا أكثر منك على الرغم من أنه لم يكمل تعليمه..».

«كيف تريدينني أن أبني حياتي على فرضيات يا ليلى، تعرفين أنني لست كذلك.. من سأربط به حياتي يجب أن يكون على مستوى من العقل والنضج، يجب أن أعرفه وأعرف كيف يتكلم وكيف يفكر وينظر إلى الأشياء، لن أتزوج لمجرد أنني وصلت إلى سن تفرض على الفتاة الزواج كان من كان الذي تقدم إليها، لن أتزوج حتى أجد من أقتنع منه تمامًا حتى وإن لم أتزوج، فلا يهم».

«اسمعيني يا مها، ومن ثم فكري وحدك وسأكون معك في أي قرار تتخذينه، مهما وصلت الفتاة من العلم والمنصب، تبقى غريزتها التي فطرها الله عليها أن تكون زوجة وأمًا، فلتتعلمي بقدر ما شئت، ولتعملي أين ما أردت، ولكن في النهاية، ستصلين إلى مرحلة تجدين فيها نفسك بحاجة إلى طفل يناديك بأمي، وزوج يناديك حبيبتي.. مهما كابرتِ، ومهما أنكرتِ حاجتك إليها.. تلك هي

الفطرة، ومن يخرج عنها يشذ عن القاعدة ويظل ضائعًا حتى يجد طريقه في ما خلقه الله له...».

«بارك الله فيك يا ابنتي.. أنت نعم الصديقة، وأطمئن دائمًا حين أعرف أنك بالقرب من ابنتي.. سأترككما وأحضر لكما العشاء».

ثم خرجت، كم مسكينة أم مها.

«كيف تشجعينني على الزواج وأنت مررت بأسوأ تجاربه يا ليلى واعتزلتِ الرجال وبقيت تربين ابنتك وحدك».

«كما قلت؛ بقيت أربي ابنتي، أصبح عندي هدف آخر ليتحول تركيزي واهتمامي إليه، إذا تزوجت فمن يبقى لمريم؟! لا يا مها لا تفهمي ما فعلت كرهي للرجال، نعم كرهتهم فترة بسبب ما مررت به، ولكن لا أخفيك سرًّا كم مررت بمواقف تمنيت لو أن لي زوجًا أشد به أزري وأرمي عليه همي؛ فهم مهيأون لتحمُّل المسؤولية..».

«ولِمَ أنت حائرة بأمر يوسف حتى الآن، إن كنت في حاجة إلى رجل، فها هو قد عاد يطلب السماح؟!».

«آآآآه هذا ما جئت أسألك عنه... نعم لقد عاد يطلب مني أن أقابله ليشرح لي ظروفه وما مر به».

«حسنًا وماذا كان ردك..؟!».

«طلبت منه أن يعطيني فرصة لأفكر بهدوء، هل تعرفين ماذا يعني هذا؟! يعني أنني موافقة على إعادة العلاقة من جديد، هل تعرفين ماذا يعني أن أرى يوسف مرة أخرى بعد آخر مرة رأيته في

المحكمة.....؟!!!!!!».

«نعم؛ وماذا يعني ذلك؟! قابليه مع أحد وليس وحدك ليقول ما يريد، ثم بعدها سيعطيك فرصة للتفكير، حينها ستعرفين إن كنت تريدين العودة إليه أم لا».

«لا أدري يا مها، يبدو لي الموضوع في غاية الصعوبة.. ولكن أظن أنني سأفعل ما قلت، ماذا سيحصل في أسوأ الأحوال؟! المهم اتركيني وفكري فيما قلت، أرجوك؛ فكري في ابن خالتك بجدية أكبر....».

«لا أعدك بشيء؛ فأنا لست مرتاحة».

«هداك الله يا أختي، المهم أنا هنا لأدعوك غدًا عندي في المنزل إلى عيد ميلاد مريم، تعالي ولا تكوني سخيفة».

«سأحاول، إن أنهيت دراستي سآتي.. أعدك...».

وجاء يوم عيد ميلاد مريم في الثالث عشر من آب «أغسطس»، كم يذكرني هذا اليوم باليوم الذي علمت فيه بحملي، بخوفي ورعبي من أن أصبح أمًّا وحدي من دون أب، وكيف في اليوم الذي حملتها بين يدي تغيرت حياتي وتلونت بألوان البهجة والطفولة، أعطتني أملًا بحياة سعيدة بعدما فقدته..

وجاء أبي وأمي ومعهما جابر وزوجته زينب وخالي وزوجته وابنتهما وأخواتي سميرة وعايشة ودانة، كانت مريم تقفز في أرجاء المنزل فرِحة بهم.. أخذت زينب إلى المطبخ واعتذرت لها عمّا حصل

واعتذرت هي لي عن الكلام الذي قالته.

لم تأتِ زينة كما توقعت منذ رأيتها عند محل البوظة البارحة، وأما مها فاعتذرت لارتباطها بدراستها كالعادة بعدما أخبرتني بأنها طلبت من أمها أن ترد على أختها لتقول لهم إنها رفضت الارتباط بابن خالتها وأنها في مشاحنة شديدة مع أمها.. هدى الله صديقتي..

وبعد العشاء الفاخر الذي قضيت معظم اليوم أطبخه، أحضرت قالب الحلوى الذي أعددته بنفسي أيضًا وكتبت عليه اسم ملاكي الصغير مريم، غنينا جميعًا لها ثم أطفأت شمعاتها الخمس وارتمت بين أحضاني من خجلها... التقطت لها صورة تذكارية ومعها جميع عائلتي حولها.. لأضمها إلى ألبوم ذكرياتها الذي أعده لها منذ اليوم الأول لولادتها.

نظرت إليهم جميعًا؛ عائلتي أغلى ما أملك، مجتمعة في المكان، تعجّ ضحكاتهم في أركان بيتي، هذا البيت الذي عشت فيه وحدي مع ابنتي، نادرًا ما نتجمع فيه جميعنا كالعائلة، اليوم أنظر إليهم وهم متجمعون في مجلسي الصغير: أبي وخالي وجابر يتابعون مباراة وجدوها في قناة مجهولة على التلفاز، أمي وزينب وزوجة خالي يتكلمن في موضوع لا أعرف محتواه لكنني أستطيع أن أخمن بخصوص جابر أخي، وأنا وريم وعايشة ننظف الطاولة، وسميرة في المطبخ تحضر الشاي.. أما الأطفال فمع مريم في الغرفة يفتحون الهدايا وأظن أنهم قد بدأوا بتكسيرها.

وفي آخر اليوم، وككل عيد ميلاد لمريم، يجب أن نتصفح ألبومها لنرى كيف كبرت على مدى الأعوام، ولادة مريم كانت نقطة تحول في حياتي وبالتالي حياة عائلتي.. خروجي من المنزل، الفجوة التي تركتها في المنزل، توتر العلاقة بيني وبين إخوتي على الرغم من محاولاتي أن أبقيها كما هي.. ولكن والحمد لله الآن بحال أفضل عمّا كنا عليه.. كان يومًا جميلًا يملؤه الحنان والدفء.. ودعتهم جميعًا وقد بدت نظرات الحزن ترتسم على وجه مريم فهي لا تريد اليوم أن ينتهي ليت أيامنا الجميلة جميعها لا تنتهي يا ابنتي.

وبعد تسعة أشهر من الألم في مختلف أنحاء جسدي، والذي كان يتنافس هو والألم النفسي والهم الذي يطبق على أنفاسي حين أبدأ بالتفكير في كيف سأربي من في بطني وحدي، كيف سأوفر لها كل ما تحتاجه وأضمن ألا ينقصها شيء، أسئلة كثيرة كانت في بالي لم أجد لها أجوبة ولا حلولًا، أحاول ترتيب أمور حياتي المبعثرة لأستعد لاستقبال ابنتي..

جاءني المخاض في ليلة صيفية هادئة لم يعكر صفوها إلا صوت بكائي وصرخات ألمي الذي ظننت أنه سيكون السبب بقدوم أجلي، على سرير الولادة كنت أتلوى يمينًا ويسارًا لأجد الوضعية التي من الممكن أن توقف ذلك الألم الذي كان يزداد مع الوقت بدلًا من أن يخف، قطرات العرق المتصبب من أعلى جبيني اختلطت مع دموعي المنهمرة ومن دون توقف من عيني، كانت

أمي ممسكة بيدي تقرأ الآيات القرآنية وتدعو لي ليخفف الله عني متجاهلةً رجائي لها أن تفعل أي شيء لتوقف الألم وتخرج الشيء العالق بين أحشائي، تمنيت الموت آلاف المرات ورأيت عزرائيل يطوف فوق رأسي ينتظر أن تصعد روحي إليه فيقبضها بين يديه، فقدت القدرة على الصراخ أكثر، وحين وصل ألمي عظمته وصرخت آخر صرخة استطعت إخراجها من بين أحبالي الصوتية، سمعت معها صرخة أخرى، صرخة أصغر، صرخة ابنتي التي خرجت من بين رجلَي لأضعها بين يدي.. قبّلتها بين عينيها وضممتها إلى صدري فانهمرت دموعي وبكيت من فرحتي بها، تأملت ملامحها، سليمة، جميلة، صغيرة، وابنتي.. لي.. مسؤوليتي.. ليس لها أحد في الدنيا إلا أنا.. عاهدت نفسي وهي بين يدي على أن أحميها، أن أوفر لها حياة أفضل من حياتي، حياة مملوءة بالأماني والأحلام، بالطموحات والإنجازات.

سميت ابنتي مريم تيمنًا بالسيدة مريم؛ لأنني صرختُ بكلماتها مرارًا وتكرارًا وأنا ألدها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾، ودعوت الله أن يُكملها بالطهارة والنقاء والحفظ بعيني الرحمن.

بدأ الأهل والأقارب بالتهافت على منزلنا ليباركوا لنا بالمولود الجديد، وبين المباركات تأتي المواساة بولادة هذه الطفلة الجميلة من دون أب يصرف عليها وعليّ: "أعانك الله يا ابنتي، كيف ستربين هذه الطفلة وحدك؟!".. "رزقك الله الزوج

الصالح يا ابنتي ليعينك على تربية هذه الطفلة؟!" .. كل عبارة وكل كلمة من تلك الكلمات كانت تزيد همي وتثقل كاهلي بتحمل الصرف وتربية طفلتي.. كان الناس يظنون أنهم بقول تلك العبارات يشعروننا بأنهم متفاعلون معنا وتهمهم أمورنا.. ولكن في الواقع، نحن لم نكن في حاجة إلى من يذكرنا بأنني أنجبت طفلة وسأربيها وحدي من دون زوج، لكنن أحتاج أن يذكرني أحد بأن تربية طفلة وحدي ليست بالأمر السهل وأن مصروفها كبير جدًا وخصوصًا أنني بلا عمل.

حين رأيت أن الضغط زاد عليَّ من كل الاتجاهات، لم أعد أستطيع التحمل أكثر، لم أعد أستطيع سماع كلمات الشفقة أكثر، لم أعد أتحمل أن يأتيني أحد يطلبني للزواج؛ فقد كرهت الرجال كلهم من دون استثناء، نظرات الناس إليّ التي كنت أراها تحرقني وأنا واقفة أمامهم وهم يتساءلون بأعينهم ماذا فعلت حتى لا يتحملني رجلان وأطلّق مرتين في أقل من عام واحد... وآخرون ممن يظنون أنني يجب أن أسلّم ابنتي؛ فلذة كبدي وقطعة مني إلى أبيها ليربيها، لأنني لن أستطيع أن أربيها وحدي، وأنا ما زلت صغيرة، يجب أن أعيش حياتي وأتزوج وأفرح، بلا مسؤولية عظيمة كهذه، فليتحملها أبوها هو أحق بها.. أما غيرهم فلا يتكلمون، ينظرون إليّ فحسب بعين الشفقة والحزن على حالي ويعاملونني وكأنني سأموت قريبًا لأنني مطلّقة وأنجبت طفلة فحسب.

هنا جاءني القرار الذي تغيرت حياتي منذ اتخذته، القرار المصيري الوحيد الذي اتخذته وحدي، بقناعتي، من دون مساعدة أحد.. قررت أن أترك بيت أبي وأرحل، لم أفكر إلى أين أو كيف.. كنت فقط أريد أن أترك كل ذكرياتي التي لم يساعدني مَن حولي على نسيانها حتى وإن رغبت في ذلك، لم أعد أحتمل أن أبقى في المكان نفسه، في الحي نفسه، وكل من هنا شاهد سقطاتي الواحدة تلو الأخرى واستمتع بالكلام عنها وتأليف القصص والأقاويل حولي، لم أكن لأسمح لابنتي بأن تعيش في البيئة المسممة نفسها لتكبر وتصبح نسخة مني وتجرب ما جربته.

انقلب بيتنا رأسًا على عقب بعدما سمعت أمي وأبي بقراري، كنت أرى في أعينهم أنهم يشعرون بما أشعر، بالذات أمي.. وهي ترى نساء الحي وتسمع ما يقلن من أمامنا ومن وراء ظهورنا، لكن أبي رفض حتى أن يفكر في الموضوع: "يكفينا ما يقول الناس الآن، ماذا سيقولون لو خرجت لتعيشي وحدك؟!" صرخ في وجهي رافضًا... "يا أبي لا أستطيع الاستمرار هكذا أكثر، نظرات الناس تقتلني مئات المرات في اليوم الواحد.. وأنا لا أريد أن أتزوج ثانية".

"يا ابنتي الزواج للفتاة ستر وليس عيبًا والطلاق ليس جريمة".... كان رفض أبي يزداد يومًا بعد يوم، وإصراري يزداد أكثر.

"انسي الموضوع، هذا الأمر مرفوض لن تخرجي من منزلنا إلا إلى منزل زوجك.." ... كان أبي إن قرر شيئًا لا يتراجع عنه، لكنني لم أفقد الأمل، كنت مصرّة على قراري مهما كان الثمن: سمعتي أو طاقتي أو أهلي أو أي ما كان يكون.

اسودت الأيام في وجهي حتى إنني فكرت في الهرب إلى المجهول، إلى أي مكان، من دون ترك أي دليل ليجدني أحد، لكنني كنت أعلم أنني لو فعلت فلن يسامحني الله على ذلك؛ فخوفي من الله أن أفعل شيئًا كهذا بأهلي كان أكبر مني.. فلجأت إلى الله لينير دربي وييسر أمري.

لم أنتظر طويلًا حتى استجاب الله دعائي وجاءني خالي بعد أيام يزف إليّ خبر إيجاده لي وظيفة مربية في حضانة أطفال تقع في العاصمة حيث يعيش هو وعائلته، قفزت يومها وارتميت بين أحضانه من شدة فرحتي، لا أدري كيف أرد جميل هذا الخال ما حييت.. لم أسأله أي تفاصيل كالراتب أو ساعات العمل، ما أهمني هو أنه في مكان بعيد من هنا، أستطيع أن أبدأ من جديد.. حين أخبرني أن المكان بعيد وأنني سأحتاج إلى مواصلات لتأخذني وترجعني إلى المنزل، أخبرته بقراري ترك منزل أبي وأخبرته بموقف أبي من الأمر، عرض عليَّ أن أسكن أنا ومريم عنده في منزله بعض الوقت ثم نرى مسألة سكني وحدنا.. كان الحل الأمثل لكل الأطراف وبالذات لأبي؛ فبهذه الطريقة لن أعيش وحدي وبالتالي يستطيع أن يحفظ وجهه أمام معارفه.

انتهيت من تنظيف المطبخ، وقبل أن أذهب إلى غرفتي، دق جرس الباب، ركضت مريم إلى الباب لتفتحه، وانتظرتني حتى آتي إليها فهي لا تستطيع أن تفتح باب المنزل حتى آذن لها.... نظرت من العين السحرية فلم أجد أحدًا... فتحت الباب ووجدت باقة ورد من أجمل ما يكون وإلى جانبها صندوق مغلف.. مَن مِن الممكن أن يحضر شيئًا كهذا ويتركه ويرحل... ربما زينة لتعبّر لي عن أسفها لأنها لم تحضر الحفلة؟!

«ماما.. من أحضر لنا هذا الورد.. ؟!» مريم تجرُّ يدي.

«لا أدري حبيبتي.. دعينا ندخله ونقرأ البطاقة..».

دخلنا ووضعت الباقة على طاولة المطبخ.

«مريم اذهبي وغيري ملابسك واستعدي للنوم، سآتي..».

«لكنني أريد أن أرى...!».

«مريم لقد تأخر الوقت، غدًا لديك مدرسة».

عبست بوجهها ورحلت غاضبة إلى غرفتها.. فتحت الظرف الملصق على الصندوق وقرأت.

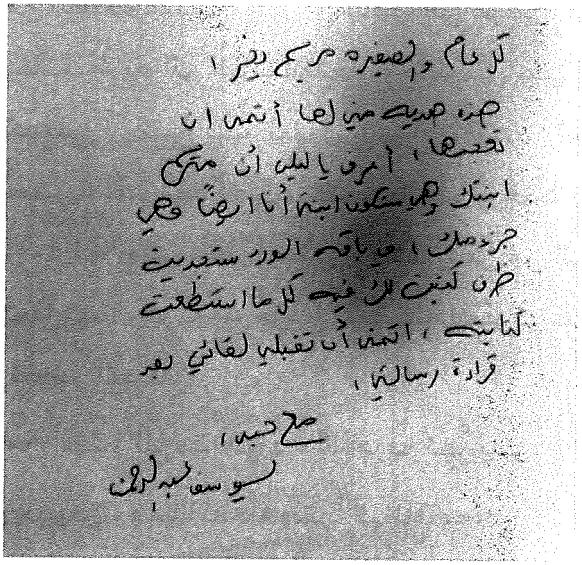

«مريم سأذهب إلى السوبر ماركت لا تتحركي ابقي هنا»، صرختُ وأنا أهلع إلى الخارج، لا أدري لماذا، لا أدري من كنت أريد أن أرى أو ألحق به، قادتني قدماي إلى خارج البناية أتلفّت يمينًا ويسارًا ربما رأيت المرسل، مندوب التوصيل، أو...أو... أو يوسف.. ولكن لا أحد، كان الشارع هادئًا جدًّا ولا أثر لأحد.. السيارات تتحرك يمينًا ويسارًا.. لا أحد مألوفًا، لم أيأس، بقيت حوالي العشر دقائق وأنا أنظر إلى المارة أتأمل وجوههم وهم يسقطون عليّ نظرات الاستنكار والاستغرب.. أريد أن ألمح وجهًا مؤلوفًا، أحدًا يبدو وكأنه غادر بنايتي للتو.. ولكن لا أحد.. لم أستطع التنفس من شدة الرطوبة في الجو، ومن شدة توتري مما حدث..

عدت إلى المنزل وأنا أنظر إلى البطاقة.. ثم نظرت إلى الظرف المخبّأ بين الوردات الحمر.. فتحته ورأيت مجموعة كبيرة من الأوراق.. رسالة طويلة جدًّا... تصفحت الأوراق.. نعم إنه خطه.. تسارعت ضربات قلبي بقوة وأنا أمسك برسالة منه، من يوسف، أصبح قريبًا جدًّا، وصل إلى منزلي، كانت رسائله في البريد الإلكتروني شيئًا ورسالة بخطه وباقة ورد شيئًا آخر.

لم أستطع أن أنتظر طويلًا من دون أن أقرأها.. ذهبت إلى مريم التي استعدت للنوم، وأدخلت كل ألعابها لتنام إلى جانبها واطمأنيت عليها.. قبّلتها في جبينها وقرأت عليها آيات من القرآن كما أفعل كل ليلة: «من أحضر الورود والهدية ماما؟!» مريم ابنتي أخذت فضولها مني.

«صديق قديم لي.. سأحكي لكِ قصته يومًا ما.. لقد أحضر لك هدية لعيد ميلادك أيضًا».

«حقًّا أريد أن أراها...!!».

«في الصباح في الصباح.. الآن موعد النوم إن كنت لا تريدين ماما تزعل..».

«حسنًا ماما.. تعلمنا في المدرسة أن نقول شكرًا حينما يعطينا أحد شيئًا جميلًا... يجب أن تفعلي ذلك..».

ابتسمت وقبلتها مرة أخرى.

«حسنًا أبله مريم، سأقول له شكرًا لا تقلقي..».

ذهبت وكوب الشاي والورد والرسالة إلى غرفتي، جلست في السرير.. كان قلبي قد بدأ بالخفقان بشدة لمجرد أنني أمسك برسالة منه..... وبدأت القراءة:

ليلى،

أعرف أنه من الممكن أن يكون صعبًا عليك قبول ورود أو رسائل مني في هذه المرحلة التي نحن فيها.. ولكن حين وجدتك مترددة في مقابلتي.. ظننتُ أنه من حقكِ علي أن أعطيك ولو نصف أسبابي أو أحكي لك قليلًا مما عندي حتى تقتنعي بأن تعطيني فرصة لأبرر لك ما حصل.. فطلبت من خالك عنوان بيتك، وبالمصادفة أخبرني أنه يوم ميلاد مريم، فوجدتها فرصة لأعبر لك عن إحساسي تجاهها.

أعرف كم عدد التساؤلات التي تملأ عقلك منذ اللحظة الأولى التي قرأتِ فيها أولى رسائلي، ولا ألومك عليها، فالذي حصل أكبر من أن يستوعبه قلبك الذي يشبه ببراءته قلوب الأطفال، لكنني سأحاول أن أفك الخيوط التي تشابكت داخل عقلك، وأجيب عن التساؤلات التي أوجعت قلبك، كنت وما زلت أريد أن أقابلك وجهًا لوجه، ولكن إن كانت هذه رغبتك فلكِ ذلك.

بدأت أموري بالتعقيد قبل أن أعقد قراني عليك، بعدما تحسن وضعي كثيرًا في عملي عمّن كان سابقًا، وأصبحت قادرًا على أن أفتح منزلًا خاصًا بي، بدأ أبي يعرض عليَّ الفتيات من بنات أصدقائه الذين يطمح إلى أن يشاركهم أعمالهم وصفقاتهم، فيكون زواجي بإحدى بناتهم بداية لتلك الصفقات، وكأنني لا شيء بالنسبة إليه إلا وسيلة ليحظى هو بقبول شركائه.

لكنني والحمدلله كنت قد عقدت النية على أن أرتبط بكِ حتى قبل أن أحبك وتتربعي ملكة داخل قلبي، كنت أريد أن أتقدم إلى خطبتك لأنني أعلم أن ذلك سيعني لأبيك كثيرًا، فأردت أن أرد له جزءًا من الجميل الذي قدمه إليّ حين فتح لي منزله واتخذني ولدًا له، ناهيك عن ثقته الدائمة بي وتشجيعه المستمر لي، وبعدها أحببتك، ولكن حين أخبرتُ أبي بنيتي، رفض بالتأكيد في بادئ الأمر، لم يكن لرفضه لكِ شخصيًّا، بل لمجرد أنها رغبتي أنا، كما هي عادته، يشكك في قدراتي وإمكاناتي، ومهما كبرتُ في العمر، أظل في عينيه طائشًا لا يُعتمد عليّ، ومهما حاولت أن أُثبت له غير ذلك، تبوء محاولاتي بالفشل، يشعرني دائمًا بأنني لا أستطيع اتخاذ القرار الصائب حتى وإن كان قرارًا شخصيًّا كالزواج، وما زاد في الطين بلة في

اختيارك، غيرته الشديدة من علاقتي القوية بأبيك والتي كانت تزداد يومًا بعد يوم، أو ذلك ما أظُنه؛ فأنا لم أجد تفسيرًا لرفضه إلا ذلك.. فظل يشكك في اختياري، يبُثُّ في رأسي أفكارًا بأن أباك يريد استغلالي، ولمّا أيقن أن أفكارًا كهذه من المستحيل أن أصدقها، لأنني كنت أعرف أباك حق المعرفة، انتقل إلى دس أفكار بأنه من الأفضل لي ولمستقبلي المهني أن أناسب عائلة غنية تستطيع أن تفيدني وتدعمني وتضمن لي مستقبلًا بدلًا من أن أربط حياتي بعائلة لا تملك شيئًا، وكأن الزواج صفقة عمل ينهيها، ليس حياة واختيار من ستكون أمًّا لأبنائي، كم كان أبي ولا يزال ماديًّا وسطحيًا، لا ألومه على ذلك، فهو لم يعش معكم ولم يعرف قط قيمة العائلة التي تتجسد في عائلتك، وأنكم تملكون الدنيا وما فيها بحبكم وارتباطكم بعضكم ببعض.

لم أسمح له بتغيير قراري، كنت أريد أن أتأكد من رغبتك بي شخصًا، فالنظرات والابتسامات البعيدة لم تكن كافية، قبل أن أخطو الخطوة الأولى وأفاتح أي أحد في الموضوع، أرسلت الخالة فاطمة لتسألك عن رأيك، وحين رجعت تزف إلي الخبر السعيد، قابلت أباك يومها في المسجد وفاتحته في الموضوع، بدا

سعيدًا بالخبر، وضمنّي إلى صدره وقال لي يومها: إنك نعم الابن يا يوسف ولست لأطمئن على ابنتي مع إنسان أفضل منك؛ فطلب مني أن أحضر أبي وآتي إلى منزلكم، كنت خائفًا جدًّا من أن تكون موافقة أبيك متوقفة على حضور أبي، فذهبت إلى أبي ورجوته بكل السبل، لكن رفضه كان صارمًا وغير قابل للتغيير.. لم أعرف كيف أقنعه، ندمت أنني استعجلت وفاتحت أباك في الموضوع قبل أن أضمن موافقة أبي.

شعرت بالغضب، هل معقول أن والد يوسف هو السبب، هو الذي تسبب بالمشكلة؟ لِمَ يرفضني وأنا لم أفعل له شيئًا، لم يعرفني جيدًا حتى.. كان جسدي منهكًا وبدأت بالميل بجسدي على المخدة أكثر فأكثر.. لكنني لم أستطع التوقف.. أكملت القراءة:

جاءني أبي بعد أسبوع من اليوم الذي كلمت أباك فيه إلى المصرف الذي أعمل فيه، شرح لي قصة طويلة عن صفقة من صفقاته عقدها قبل ما يقارب ثمانية أشهر، ودفع فيها مبلغًا كبيرًا ليشتري مجموعة من سيارات النقل ليبيعها لشركات الشحن، لكنه لم يستطع تصريفها لأن السيارات كانت قد جاءت أقل بكثير من المواصفات المطلوبة ولم يستطع أن يبيع ولا حتى واحدة، أما عن شريكه الذي كان من جنسية

آسيوية والذي أشار عليه بهذه العملية فاختفى بعد تسلمه الأموال وإرساله السيارات الرديئة ومن دون أن يترك أي أثر له ولا لشركته.

لم أفهم في بداية الأمر ما علاقتي بكل ذلك، ناهيك عن مفاجأتي بأن أبي قد جاءني إلى مقر عملي ليشاركني همومه، شعرت بشيء ما تحرك في داخلي، شعرت بأن أبي بدأ يقدرني ليحكي لي مشكلته وكأنه يطلب مني المشورة.

كتمت مشاعري التي لم يكن لها أي علاقة بالموضوع، سألت أبي ما إذا كان لديه أي إثبات لنستطيع أن نبلغ عن شريكه أو نثبت أنه قد خالف العقد بينهما؛ فأخبرني بأن العقد كان مزورًا وأنه لا وجود لتلك الشركة ولا لذلك الاسم، سألته عن مصدر المبلغ الذي دفعه ليشتري به البضاعة، فأخبرني بأنه قد اقترضه من أحد معارفه على ضمان أنه سيعيده إليه بعد أول ستة أشهر من شراء البضاعة، التي يفترض أن يكون أبي قد باع ربعها على الأقل.. وأن الدائن يريد نقوده التي لا يملك أبي منها أقل من ربعها، وأنه هدده بأنه سيذهب إلى الشرطة إن لم يسدد أبي ما عليه.

كان المطلوب مني أن أسدد دين أبي؛ فقد كان ذلك أول طلب يطلبه مني منذ عرفت ذلك الإنسان، منذ

كنت طفلًا، كنت آخر اهتمامات أبي، وآخر شخص من الممكن أن ينظر إليّ بنظرة التقدير أو الاحترام، ولكن في تلك اللحظة بالذات، شعرت بأن ذلك سوف يتغير، فلم أستطع أن أرفض طلبه وأعود إلى نقطة الصفر معه، قلت له إنني سأحل له الأمر وإن كل ما يريده سيحصل عليه.. كنت أريد أن أكبر في عينيه، أن أثبت له أنني رجل يعتمد عليه، وأنني أستطيع أن أتخذ القرارات الصائبة.. كان يفترض بالمبلغ الذي جمعته في حسابي أن يكون لكِ، مهرك وعرسك وتجهيز شقتنا وبداية حياتنا.

200,000 كان المبلغ الذي يحتاجه أبي، كدت أقع من الصدمة حين سمعت الرقم، كيف يقترض أبي مبلغًا كهذا من دون أن يكون متأكدًا من أنه يستطيع سداده، لم أكن أملك ذلك المبلغ بالتأكيد؛ فالذي ادخرته لم يكن يتجاوز 50,000 فسحبته له، ووعدته بأنني سأقترض المبلغ الباقي من المصرف، لكن ذلك سيحتاج بعض الوقت، كانت تلك أول خطوة لي في حفرة الديون.. وبعدما تسلّم مني المبلغ، طلب مني أن آخذ موعدًا مع أهلك حتى نذهب لخطبتك.. شعرت بأن الدنيا قد أزهرت في عيني، وافق أخيرًا، موافقته حينها أعمتني عن النظر إلى الواقع الذي

كنت فيه بأنني لم أعد أملك ما أقدمه لك.. وعدني أبي بأنه سيساعدني على أمور الزواج وما إلى ذلك وأن لديه أرباحًا من تجارة أخرى له سيعطيني إياها لأبدأ حياتي.. أو هذا ما كان يقوله.

قطع اندماجي صراخ مريم تناديني من غرفتها.. وضعت الرسالة جانبًا وركضتُ إليها:

«ما الأمر يا حبيبتي؟!».

«أنا خائفة.. ابقي إلى جانبي لا أستطيع النوم وحدي...» بقيت إلى جانبها، ووضعت رأسها على صدري.. وأغمضت عينيها، لم أستطع أن أتركها، فبقيت بتلك الوضعية.. والأفكار في رأسي قد سرقت النوم من عينيّ.. بدأت أستوعب ما الذي حصل، وقليلًا بدأت أفهم ما الذي يريد أن يقوله يوسف، كنت ومع كل كلمة أقرؤها أشعر بأن يوسف هو من يتكلم، كنت أسمع صوته في أذني وأرى تعبيرات وجهه أمام ناظرَي، لم يخبرني يومًا بما كان يحصل أو قد حصل معه ومع والده، كنت أعلم أن ليوسف علاقة غريبة بوالده، أتذكر كلام أبي معه وتحذيراته له من مجاراة أبيه في محاولاته التجارية، وأن والد يوسف متهور ولا يحسب عواقب ما قد يتسبب به جنونه التجاري، أما يوسف فقد كان يرى أن يتقرب إلى أبيه إذا دعمه أو ساعده على أي أمر كان، لكنه في هذه المرة كان على حساب علاقتنا.. هل كان يوسف يرى أن أفعاله ستؤدي بنا إلى الطلاق..؟!

وبين بحر تلك الأفكار استسلمت للنوم وأنا في سرير مريم.

في صباح اليوم التالي، فتحنا الهدية لنرى أنها دمية جميلة بحجم الطفل الصغير، لها قصة شعر كطول شعر مريم.. لوهلة، ظننت أن الاثنتين تشبهان بعضهما بعضًا.. كادت مريم تطير من فرحتها بأختها كما سمتها، ورجتني أن تأخذها معها إلى الروضة، وبعد المفاوضات الطويلة وصلنا إلى حل وسطي بأن تصاحبنا «إميلي» - اسم الدمية التي في المسلسل الكرتوني سالي - في السيارة فحسب... أخذت الرسالة في حقيبتي وانطلقنا إلى الروضة ثم إلى العمل، اختبأت في مكتبي وبدأت أشرب قهوتي وأكملت القراءة:

... جئنا إلى منزلكم يومها وطلبت يدك من أبيك الذي كان في قمة سعادته، اتفقنا على كل شيء: المهر والشبكة والشقة... كنت أوافق على كل ما يطلبه أبوك؛ لأنني لن أرضى لكِ بأقل مما يريده هو لك؛ فأنت جوهرة وتستحقين أكثر من ذلك بكثير.. لم أجرؤ يومها على أن أخبره بحالتي المادية الجديدة، لم أكن أريد أن أعكر صفو اليوم السعيد؛ فقررت الانتظار أملًا بمساعدة أبي أو تدبير أمري بطريقة أو بأخرى.

كنت قلقًا جدًّا على أمر الزواج فلم أكن أريد أن أصغر في عيني أبيك ويراني عديم المسؤولية، كنت على وشك أن أخبره بأمر أبي والأموال التي يفترض

أن تكون مهرك لم تعد عندي وأنني أحتاج إلى بعض الوقت لأجمع بعض المال أو أن يفي أبي بوعده لي ويعيد إليَّ قليلًا مما أعطيته.. لكنني أمام حماس أبيكِ وترحيبه بي الذي ازداد منذ تقدمت لكِ وكلام أمك عن الأسواق التي بدأتِ أنت وهي تذهبان إليها، لم أستطع أن أتراجع، لم أستطع أن أخذلكم فأنتم كنتم الأهل الذين ليس عندي سواهم.. كنت في موقف لا أحسد عليه.. ومن هنا بدأت أموري بالتدهور أكثر فأكثر.

بالطبع ستقولين في نفسك لو كنت واضحًا من البداية لما كانت هناك مشكلة، معكِ حق، ولو أخبرتك كم هو ندمي على عدم اتخاذي تلك الخطوة، فلن تكفي مجلدات لتعبر لك عن ذلك الندم، فرحة أهلك بالزواج كانت كالسكين الذي يقطع رقبتي، لم أكن أريد خذلانهم لا غير، لهذا لم أستطع أن أخبرهم.

لم أكن أملك إلا راتبي الشهري، وحين بدأ أبوك بسؤالي متى نعقد القران، من جهتي كنت أريد أن أعقد قراني بك اليوم قبل غد، فقد كنت قد تخيلتك زوجتي ورأيت حياتي سعيدة معك.. لكنني كنت في موقف لا أحسد عليه.. ذهبت إلى أبي أسأله عن الأرباح التي وعدني بها، ولكن كالعادة، خذلني زاعمًا

أنه لم يكن مبلغًا كبيرًا وقد دفعه مُقدمًا لمشروع آخر يظن أن ربحه مؤكد وسيعطيني ما وعدني به حالما يتحرك المشروع.

فشل بعد فشل.. وفشل تجرّه خسارة.. وخسارة تجرّها الديون والسلف الواحدة تلو الأخرى.. هكذا كان أبي، ولكن في السابق، كنت بعيدًا من تلك الدائرة، أما بعدما وقعت في وسطها لم أعد أستطيع الخروج.

لم أجد إلا أن آخذ قرضًا آخر من المصرف، لكن راتبي لم يعد يتحمل أي قروض أخرى فسمح لي بنصف المبلغ الذي طلبت، دفعته لأبيك مهرًا ووعدته بأنني سأعطيه النصف الآخر من المهر في وقت لاحق، أبوك كان رجلًا لم يُخلق منه اثنان، لم يسألني لماذا، وطلب مني أن أجهز الزفاف بحسب راحتي، وألا يكون مكلفًا فأنا ما زلت في بداية حياتي.. كم أراحني كلامه حينها لكنني وعدته بأنني سأحضر له باقي المبلغ في أسرع وقت.. أما في الحقيقة فمادياتي كانت تتدهور أكثر، ازدادت الدفعات التي أدفعها مع الفوائد التي كانت تخصم مني، لم يكن يبقى من راتبي إلا قليل.

وعقدنا قراننا وكنتِ أجمل من رأت عيناي، دخلتِ قلبي من أوسع أبوابه وتربعتِ على عرشه.. وعلى

الرغم من ظروفي المالية التي تدهورت، لم أدعك تشعرين بشيء، لم أكن أريدك أن تشعري بأنك أقل من أيّ عروس، كنت أشتري لك كل ما تريدين بقدر ما استطعت، فرحَتك بالشيء القليل الذي أهديك إياه مع رسالة أعبر لك فيها عن مشاعري كانت تساوي عندي الدنيا وما فيها.. كنت أعرف أن ما يعنيك أكثر صدق المشاعر وهذا ما كنت أعطيك إياه.. لم أكذب عليك يومًا، كل ما حلمت به معك كنت أتمنى بالفعل أن أحققه وكلي أمل أن أبي سيفعل شيئًا ويعيد إليّ ما دفعته، ليس بالكامل، ولكن حتى ولو كان جزءًا فأنا الآن كأنني أعمل من دون راتب، فما يتبقّى لا يكفي لأتزوج وأفتح بيتًا خاصًّا لي ولك.

«أتمنى أن يكون اندماجك هذا في موضوع يخص عملك....!!!!!!!!!!!!!!!!» صوت جمال المزعج.. قفزت من مكاني وهرعت أضع الورقة داخل حقيبتي.

«عفوًا أستاذ جمال هل هناك شيء أستطيع أن أخدمك فيه؟!».

«أرى أنكِ مشغولة بشيء غير عملك.. هل تظنين أنكِ في مقهى تشربين وتقرئين ما تريدين...؟!» بصوتٍ عالٍ أسمع كل من حولي فتجمد كل من في المكتب وأوقفوا عملهم ليسمعوا ما يحصل، لم أتكلم، لم أرد، بقيت واقفة في مكاني لا أنظر إليه لعله يرحل.

«هاااي أنتِ.. أكلمك.. انظري إلي وكلميني كما أكلمك.. ما الذي كنت تفعلينه...؟! ولِمَ تفعلين شيئًا لا يخص العمل في الوقت الذي يجب عليك أن تفعلي شيئًا لي...؟!».

انفجرت وبصوت عالٍ:

«يا جمال، سألتك هل هناك ما تريده مني لكنك لم تخبرني ما الذي تريده.. ماذا تريد مني أن أفعل؟!».

طفح الكيل ولم أستطع التحمل أكثر، احمر وجه جمال أمامي وفتح عينيه كالبومة، حل الصمت حولي وتوقفوا جميعًا عن الكلام ينظرون إلي ونظراتهم خوف عليّ من جمال ودهشة أنني تشجعت وتكلمت بتلك الطريقة:

«كيف تجروئين على أن تكلميني بهذه الطريقة؟! هل جننتِ؟! من تظنين نفسك؟!».

«أنا موظفة في هذه الشركة حالي من حالك.. شاءت الأقدار أن تجعلني تحت إمرتك.. لكن هذا لا يعطيك الحق في أن تستعبدنا فنحن لا نعمل عندك.. جميعنا موظفون محترمون هنا...» وأخيرًا قلت ما أردت دائمًا أن أقوله.

دهشة جمال وصدمته منعتاه من الكلام وكتم غضبه ودخل مكتبه بعدما ضرب بيده ضربة على مكتبي جعلتني أقفز في مكاني.

«هل جننتِ؟!» «لِمَ كلمته بتلك الطريقة؟!» «اذهبي إليه واعتذري..» «كلا انتظري حتى يهدأ قليلًا»... كل زملائي في المكتب حولي الذي

يُحذر والذي ينذر.. لم أجد نفسي إلا أن أخذت حقيبتي وخرجت من القسم، تركت ورقة عند عمر «عقلة الإصبع» ليخبر جمال بأنني تركت المكتب ولن أعود، أعرف أنني من الممكن جدًّا أن أفصل من عملي بكل سهولة، وإن لم أفصل فسيفعل بي جمال شيئًا يجعلني أندم على عصيانه.. لكنني لم آبه لذلك؛ فلم أعد أستطيع أن أحتمل.. وعندما لم أجد زينة أشتكي لها، لم أعد أستطيع أن أبقى في المكتب.

خرجت وجلست في مقهى قريب هادئ لأستطيع أن أستجمع أفكاري، لم أعد أستطيع أن أحتمل تلك البيئة الممرضة، يملؤها الخوف والقلق، الإهانة والاستهتار بالآخرين.. جلست وحدي وطلبت قهوتي المركزة لأستطيع أن أركز تفكيري في الجزء الأهم من اليوم وأحاول اتخاذ قرار مناسب في هذا الموضوع.. أخرجت الورقة وأكملت القراءة:

> ...لم أكذب عليك يومًا، كل ما حلمت به معك كنت أتمنى بالفعل أن أحققه وكلّي أمل أن أبي سيفعل شيئًا ويعيد إليّ ما دفعته، ليس بالكامل، ولكن حتى ولو كان جزءًا؛ فأنا الآن كأنني أعمل من دون راتب؛ فما يبقى لا يكفي لأتزوج وأفتح بيتًا خاصًّا لي ولك.. وبعدما اقترب الموعد الذي اتفقنا على أن يكون يوم الزفاف، وهو بعد إنهائك امتحاناتك، وأنا لم أجهز أي شيء من أمور الزفاف ولا الشقة، حين كان يسألني أبوك

عن التجهيزات كنت أحاول التهرّب من السؤال بكل سذاجة، يا ليت الزمن يعود بي لأعترف له بكل ما كنت أمر به، لكن الكِبر الذي كان في داخلي ورغبتي في عدم هزّ الصورة التي كان أهلك يرونني بها، أخذتني العزّة بالإثم، ولم أخبره، كنت أتهرب من أسئلته أو أخبره أن كل شيء على ما يرام.. حتى أصبحت لا أريد أن أراه أكثر.

ذهبت إلى أبي أخبره بإفلاسي وعدم قدرتي لا على تحضير زفاف ولا استئجار شقة وتجهيزها، طلبت منه مساعدتي بأي شيء يستطيع، وبدلًا من أن يشعر بأنه هو السبب في ما أنا فيه الآن، بدأ يسمعني كلامًا لا داعي له؛ أنه يجب عليّ عدم الزواج إن لم يكن في مقدوري ذلك، وقال إنه لهذا كان يريدني أن أتزوج فتاة غنية وأنني لن أكون في هذا الموقف لو أن والد الفتاة كان في مقدوره المساعدة وكأنني طفل أريد من يأخذ بيدي ويساعدني.

ضاقت بي الحال، لم يعد لدي أي حل إلا أن أطلب سلفة من أي من أصدقائي، كان الشيء الذي لم أفعله قط في حياتي كلها، احتجت أن أفعله، وبسبب من؟! بسبب أبي، وهنا كانت الصدمات تتوالى عليّ الواحدة تلو الأخرى، لم يستطع أي من معارفي وزملائي في

العمل وأصدقائي، أن يقرضني بعض المال لأبدأ حياتي، وبعدما نزلت من نفسي وطلبت المساعدة، لم يساعدني أحد، لا ألومهم؛ فكل منا كان لديه ما يكفي من هموم ومشكلات والتزامات، ثم الصدمة التالية كانت استحقاق الإيجار الذي لم أستطع دفعه بالطبع، حين كنت أسكن مع مجموعة من الشباب ونتقاسم الإيجار، لم أستطع أن أدفع حصتي، وطلبت من أقربهم إليّ أن يدفع عني حتى أستطيع أن أدبر نفسي وأعيد توازن حياتي، دين آخر يزيد الحمل على ظهري.. وبالطبع اضطررت للخروج وأخيرًا وجدت نفسي في الشارع، لا صديق ولا أخ، ولا أب يُعتمد عليه؛ فعدت إلى نقطة الصفر، إلى منزل أبي متجاهلًا إساءَة زوجته لي على الرغم من أنها تعرف ظروفي.

قلت لك إنني سأذهب في رحلة عمل، وانقطعت عن كل من حولي، أردت أن انعزل بنفسي لأجد حلًّا، على الرغم من أن الحل كان أمامي، كنت أستطيع أن اعترف لأبيك وأجد عنده الحل، قررت الهروب، أصبحت مثل أبي، جبانًا وهاربًا، وتقصم ظهري الديون.. كنت أشعر بأنني لم أعد قادرًا على المشي؛ أجر رجلي من مكان إلى آخر علّني أجد الحل، شعرت بأن الدنيا ضاقت علي بما فيها؛ فلجأت إلى الله

بدعائي ورجائي ليفرج همي، وكلما اقتربت من أن أصارحك بوضعي وأخبرك بأننا لن نستطيع الزواج، كنت أسمع صوتك المترع بالحب والبهجة وأرى نظرة الأمل في وجهك تكسرني فلا أستطيع أن أخذلك.

كانت تلك حالتي حتى جاءني من يخبرني أن تاجرًا من معارفه يستطيع مساعدتي، وحين سألته عن الوسيلة أو ما الذي يستطيع أن يفعله هذا التاجر، أقنعني بأن أنتظر لأسمع منه شخصيًّا، كانت تلك هي حالتي، أعرف أن كل ما قلته لربما لا يعني لك أي شيء، فبالنسبة إليك لقد تركتك في النهاية.. لهذا أريد أن أراك وأشرح لك وضعي وجهًا لوجه.

إن وافقتِ اطلبي من خالك عمر الاتصال بي وسأقابلك في أي مكان تريدين.

أنتظر قرارك.

يوسف

.....

لم أصدق ما قرأت، بقيت أحملق في الورقة لدقائق قبل أن أستوعب ما قرأت قبل لحظات، هل كنت عمياء إلى تلك الدرجة، كيف لم أشعر بما كان يمر به.. لم أشعر بضيقه وألمه، أي حب

ذلك الذي كان بيننا.. اختلطت الأحاسيس في داخلي ولم أستطع تجميع أفكاري.. عادت أشرطة الذكريات في رأسي.. كل الحوارات واللقاءات التي كانت بيننا.. وأحاول تركيبها مع الكلمات التي أمامي.. ألوم نفسي؛ كيف لم أرَ ما كان أمامي.. يجب أن أقابله، يجب أن أعرف ما حصل..

«ألو، مرحبًا يا خال..».

«أهلًا يا ليلى كيف حالك..؟!».

«بخير الحمدلله.. خالي أريد مقابلة يوسف وأريدك أن تأتي معي..».

«أخيرًا اقتنعتِ، بالمناسبة أنا متأسف أنني أعطيته عنوانك، قال إنه سيرسل إليك شيئًا مهمًّا، فأقنعني».

«نعم لا بأس، أين برأيك نقابله، لا أريد أن يعرف أحد حتى أستطيع أن أفكر وحدي ومن دون أن يؤثر فيّ أحد؟!».

«لا تقلقي، لن أخبر أحدًا، حتى هو لا يريد أن يعرف أحد حتى توافقي، ثم سيذهب لأبيك مع أنني لم أشجعه على ذلك خوفًا عليه من رد فعله».

«لا أدري يا خال، لقد أخبَرني ما حصل معه، لا أدري كيف لم أرَ كلَّ أو جزءًا ممّا مرّ به، كيف لم أنتبه؟!».

«أنا صديقه يا ليلى والذي كنت أقضي معه معظم الوقت لم أفهم ولم أشعر بما يمر به، فكيف أنتِ؟! شعرت بتغيره واختفائه لكنني

لم أشعر بأن أحواله المادية تدهورت إلى تلك الدرجة، لم يخبرني بشيء بتاتًا.. بالطبع أفهمني بأنه أخفى عني حتى لا أخبرك بذلك... كم كان كتومًا هذا الرجل».

«لكنه لم يكمل لي بقية القصة، يريد أن يكملها شخصيًّا».

«نعم نعم فهمت، وأنا أيضًا أفضل أن يكون الكلام بينكما شخصيًّا، سآتي معك، لكنني سأمنحكما قليلًا من الخصوصية.. لقد قابلته عدة مرات وفي كل المرات لم يكن يتكلم إلا عن ندمه على ما فعله بك..».

شعرت بألم في صدري وتجمعت بعض الدمعات في عيني، لكنني استجمعت قواي حتى لا يشعر خالي بشيء.

«حسنًا.. تعرف المقهى الذي إلى جانب عملي؛ مقهى صغير هادئ يقع في الزاوية.. اسمه كواليس.. أفضل أن يكون اللقاء في مكان عام.. وفي النهار حتى لا أشعر بالغربة وعدم الارتياح».

«نعم ومعك حق، أفضل أنا أن تجلسا في مكان هادئ لتتكلّما بهدوء».

«جيد، أخبره غدًا الساعة الواحدة بعد الظهر، انتظراني هنا وأنا سآتي إليكما..».

«حسنًا يا ابنة أختي، أتمنى أن يكون لقاء ناجحًا ويطفئ النار التي كانت في داخلك.. وترتاحي على الأقل ولو أنه جاء متأخرًا».

«أنت قلتها.. متأخر، بعدما أصبح كل شيء رمادًا.. المهم لن نخسر شيئًا إذا قابلناه..».

بقيت في المقهى، أقلب الأوراق أمامي، وأشرب قهوتي وأفكر؛ كل ما كتب لا يمكن أن يكون تأليفًا من نسج خياله، من المؤكد أنه عانى كثيرًا ليصل إلى هنا، كما عانيت أنا.. الآن فهمت حواره مع أبي في اليوم الذي نادوني فيه إلى مجلس بيتنا، لا أنسى وجهه في ذلك اليوم وكيف نظر إليّ حين رفضت أن أذهب أمام أبي وخالي، فهمت غضب أبي منه يومها، بعدما حذره مرارًا وتكرارًا من أبيه ومشكلاته، جاءنا بعد غياب قبل أيام من الزواج يقول إنه يريد تأجيله.. لو كان أبي يعلم ما مر به يوسف لسمح له بالتأجيل على الرحب والسعة، لو كان يوسف واضحًا معنا عن ظروفه وإمكاناته ما كنّا ضغطنا عليه بما لا يستطيع.. ولكن ماذا تنفع كلمة «لو» الآن.

كنت في حيرة من أمري، تحكمت بي الأفكار وأخذت تقودني يمينًا ويسارًا.. مشيت على غير هدى علّني أستطيع تصفية ذهني قليلًا مما كان فيه.. وفضلًا عن ذلك، كنت متأكدة من أن جمال سيرفع بي شكوى وربما سيتسبب بطردي، ذلك كان جائزًا جدًّا.

وجدت نفسي أمام منزل زينة.. رفيقة دربي.. قرعت الجرس وبمجرد أن فتح الباب:

«أظن أنني قد طردت من العمل....»، ودخلت من دون استئذان.

علامات الصدمة لا تزال على وجه زينة وهي تتبعني وأنا أدخل صالة منزلهم وأجلس على الأريكة أمام التلفاز.

«ماذا؟!!! ماذا حصل..؟!».

«نعم، نعم؛ أظن أن جمال سيطردني اليوم، إن لم يكن اليوم، ففي الغد، إن كان ما زال حيًّا لم يمت من صدمته».

«ماذا تقولين، أخبريني ماذا حدث...؟!».

شعرت بزينة الطبيعية أمامي، زينة التي أعرفها، ليست الغريبة المتهربة.. نظرت إليها ورفعت حاجبًا وأنزلت الآخر:

«أنتِ السبب».

«ماذا؟! ما علاقتي؟! لم أكن معك من الأساس».

«رأيتِ، لهذا أنت السبب، إن كنت معي في العمل لكنت أوقفتِني عند حدي، قمت بتهدئتي، فعلت أي شيء.. لا أدري ما بك ولِمَ تتهربين مني، ويوسف أرسل برسالة يحكي لي فيها قصة حياته منذ ست سنوات، ولأنك لم تكوني معي لتنصحيني تهورت وقلت إني سأقابله غدًا والآن أشعر بأنني لا أستطيع فعل ذلك... آآآآآآه لا أستطيع التفكير أكثر».

وضعت يدي على رأسي لعل عقلي يهدأ وتقف الأفكار عن الركض داخلي يمينًا ويسارًا... وضعت زينة يدها على كتفي تربِّت علي وكأنني مجنونة قد فقدت صوابها...

«لا أريدك أن تربتي عليَّ، أخبريني ماذا بك.. لن أخرج من منزلك حتى تخبريني ما بك، وإن لم تخبريني فلن أخرج، وستبقى مريم في الروضة وربما سيخطفها أحدهم ولن أرى ابنتي مرة أخرى وستكون أيضًا غلطتك لذلك أخبريني الآن...».

جلست زينة أمامي مذهولة، نعم لقد فقدت صوابي أمامها، أعتقد أنها الوحيدة التي من الممكن أن تفهم هذه الحالة فقد تعاملت معي بما فيه الكفاية.. في العادة تعرف زينة ماذا تقول لتهدئتي وتجعل الأمور تبدو أسهل أمامي وأبسط، لكنها الآن لا تتكلم، بقيت متيبسة أمامي، تنظر إليّ تارة، وإلى الأسفل تارة أخرى.

«لا لاا!... عودي أرجوك، أعرف هذا الوجه، زينة ما الذي يحصل لك، لقد تغيرت كثيرًا؟! أكل هذا بسبب أسامة؟! كم أكرهه وأكره ما فعل بك؟!».

«ماذا قال في الرسالة؟!» بعد صمت قالت خارج الموضوع الذي كنت أكلمها فيه.

«من..؟! يوسف...!!! قال كثيرًا يا زينة» أرجعت رأسي إلى الوراء لأسترخي.

«قال لي عن الديون التي أوقعه فيها أبوه، وكيف أودت به إلى حفرة لم يستطع الخروج منها، كيف أنه بسبب عدم وضوحه معنا فقد ثقة أبي به، لذلك غضب أبي منه وأدى بنا إلى الطلاق...».

«وبعد ذلك.. هل أخبرك ما حصل بعد ذلك؟!» سألتني زينة بفضول.

«آآآه لا، يريد أن يخبرني به حين يلقاني، وسيكون لقاؤنا غدًا بالمناسبة.... آآآآه أخبريني أن ما أفعله ليس بجنون».

«ليس جنونًا يا ليلى، أنت تستحقين أن تسمعي القصة كاملة، وهو

يستحق أن تسمعي له ما يريد قوله، يوسف يحبك يا ليلى، جاءك يطلب رضاءك بعد كل الأعوام، وجرب كل الطرائق التي يمكن أن تصل إلى قلبك».

«هل تظنين ذلك..؟! إذًا لست مجنونة لأنني أريد لقاءه».

«أجل، بغض النظر عن الحب والمشاعر يكفي الفضول، ألا تريدين أن تسمعي ماذا يريد أن يقول، كيف شكله، ماذا كانت حالته طوال تلك الأعوام؟!».

«تستطيعين قول ذلك.. نعم ممكن.. دعك من هذا الآن، أخبريني عما في خاطرك.. لِمَ كل هذه الإجازة؟! هل لي دخل بها؟!».

«يا ليلى لا تكترثي لي؛ أنا بخير، هاأنا أمامك، شعرت بالملل من العمل ومن في العمل، كنت أريد أن أعيد تفكيري في حياتي قليلًا، أعيد ترتيبها وترتيب أولوياتي».

«ما الذي جدّ في حياتك ليدفعك إلى إعادة التفكير في كل ما فيها الآن..؟!».

«.... اممم، لا أدري، أسامة ممكن، رؤيتك ورؤية حياتك وكيف على الرغم من الذي مررت به، تسعين إلى وزن الأمور والتفكير فيها بشكل صحيح، حتى في أمر يوسف، على الرغم من حبك له فإنك ما زلت تفكرين كثيرًا لتفعلي الشيء الصواب ومن دون أن تدفعك مشاعرك لأن تتهوري.. لا أستطيع أن أكون مثلك».

كلام زينة كان غريبًا، صوتها يملؤه حزن لم أستطع أن أفهم

مصدره، هل كل ذلك بسبب أسامة..؟! حاولت تصديقها ولكن صعب علي ذلك.. قضيت بقية اليوم في منزلها نتحدث عن أمور مختلفة، تارة أخبرها عن مستجدات العمل ومواقفي مع جمال، وتارّة أخرى تخبرني كيف تقضي إجازتها التي لا تعرف حتى الآن متى تنتهي.. حياة زينة تخلو من أي خطط فهي تفعل أي شيء في أي وقت ومن دون أن تفكر متى وأين.

«سيف يسألني عنكِ ثلاث مرات تقريبًا كل يوم».

«آآه يا له من تافه..».

«أعتقد أنه اشتاق إليك؛ فهو لا يجد إلى جانبه من يتشاجر معه على تحريك الكرسي أو اختفاء أقلامه».

بعد ضحكة شريرة... «درج مكتبي مملوء بأقلامه، إثارة غضبه والاستمتاع برؤيته يستجوب جميع من في القسم، هي تسليتي اليومية..».

«كم أنت لئيمة.. أكاد أقسم إنه معجب بك، أنت الفتاه الوحيدة التي يكلمها وهو ينظر إلى وجهها.. أما جميعنا فيكلمنا وهو ينظر إلى شاشة حاسوبه أو إلى سقف المكتب..».

وجاء موعد انتهاء دوام مريم.. ودعت زينة ووعدتني بأن تنهي إجازتها قريبًا.. أخذت مريم وعدت إلى المنزل مشغولة البال، كيف سأقابل يوسف غدًا.

كان يوم رحيلي من بيتنا صعبًا وكئيبًا.. كانت أمي تبكي طوال الوقت، شعرت بالذنب لتسببي ببكائها، ولكن لم يعد في يدي حيلة، رفضت أن تودعني وتجنبت رؤيتها، وعدتها بأنني سآتي لأزورهم كلما استطعت ذلك.. وأنني لن أكون وحدي؛ فأنا سأعيش مع خالي وسيستطيع الاهتمام بي.

رحلت وبدأت حياة جديدة في غرفة لي ولابنتي في بيت خالي، لم أشعر بقيمة مساعدة أمي وسميرة وعايشة على الاعتناء بمريم إلا حين أصبحت معها وحدي.. كانت تبكي طوال الوقت ولم أكن أعرف إسكاتها، أما عن الرضاعة فلم يكن في صدري ما يسد جوعها فأضطر إلى إعطائها الحليب الاصطناعي الذي يسبب لها الغازات وآلام البطن مما يزيد بكاءها ليلًا نهارًا.

بعد أسبوع، بدأت عملي في الحضانة.. كان كل شيء جيدًا في هذا العمل، قربه من بيت خالي لا يجعلني أحتاج إلى من يوصلني؛ فأستطيع أن أمشي من البيت إلى الحضانة بسهولة تامة، والشيء الأفضل أنني أستطيع أن آخذ مريم معي كل يوم وأبقيها مع الأطفال الذين أعتني بهم من الساعة السابعة صباحًا وحتى الرابعة عصرًا.

كنت جديدة في مجال الأمومة لأعتني بطفلتي؛ ففوجئت بحجم المسؤولية التي أمامي بأن أعتني بأحد عشر طفلًا وطفلةً في الوقت نفسه.. كان الأمر في منتهى الصعوبة في بادئ الأمر فأرجع إلى المنزل وأنا فاقدة الوعي من شدة التعب وأشعر

برأسي وكأنه بحجم الجبل من صراخ الأطفال طوال النهار.. ولكن مع الأيام، حاولت تثقيف نفسي بقراءة كتب عن الأمومة وتربية الأطفال، وكنت أطبق كل ما أقرؤه على مريم وبقية الأطفال في فصلي.. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مربية أخرى متمرسة في المهنة للفصل نفسه؛ فكنت أتعلم منها كثيرًا وأصبحت صديقة عزيزة لي.

كان تعلقي بالأطفال في فصلي يزداد يومًا بعد يوم وأنا أراهم يكبرون أمامي، الذي يبدأ بالجلوس، والتي تبدأ تأكل أول وجبة لها، وكان الأهالي سعداء بطريقة اعتنائي بأولادهم ويمدحونني عند مديرة الحضانة فتقوم بتقديم المكافآت لي مما كان يزيد ثقتي بنفسي وتفانيّ في عملي وإصراري على أنني أستطيع أن أقدم أكثر وأطور نفسي.

كانت حياتي تمشي في المسار الذي تمنيته ودعوت الله أن ييسره لي، بعيدًا من كل ما يذكرني بما مضى من أماكن ووجوه ونظرات.. عندي عمل أحبه ويوفر لي ما يكفيني وابنتي فلا أثقل على خالي بشيء، ومنزل أعود إليه كل مساء لأشعر فيه بالأمان.. ازدادت صداقتي بخالي وأصبحت أشاركه كل شيء في حياتي، كان يحب مريم ويغرقها بالهدايا والألعاب التي لن تستطيع مريم أن تلعب بها إلا بعد أعوام، لم يكن يفرق بينها وبين ابنته التي تكبر مريم بعامين، وكنت أزور بيت أمي في نهاية كل أسبوع لأطمئن إليهم ونقضي أنا ومريم اليوم معهم.

الشيء الوحيد الذي كان يعكر صفو الحياة الجديدة كانت، زوجة خالي؛ فحين يكون خالي في المنزل، تكون بكامل طيبتها وترحيبها بي.. أما حين يكون غائبًا عن المنزل، فكانت تظهر شخصيتها الأخرى، في قمة القسوة عليَّ وعلى ابنتي، تتأفف لوجودنا فنحن كما تقول اقتحمنا خصوصيتها مع زوجها ولم يعد لهما وقت خاص وحدهما، لم أعرف إن كانت تقول الكلام نفسه لخالي فيشعر هو الآخر بالإحساس نفسه، شعرت بضيق شديد منذ بدأت توجّه إليّ مثل ذلك الكلام فأصبحت أتعمد أن أتأخر وقتًا أطول في الحضانة حتى لا أعود إلى المنزل، وبدأ إحساسي بأنني حمل ثقيل على خالي مع الأيام؛ فطلبت منه أن أنتقل لأعيش وحدي في منزل، فقد كبرت مريم، وازدادت أغراضها وحاجاتها، وأنني أستطيع تدبير أمري الآن والاعتماد على نفسي.. تردد خالي في بادئ الأمر وظل يضغط علي بأن أخبره ما الذي يضايقني في الحياة معه، هل زوجته قالت لي شيئًا ضايقني.. لم أخبره بما يحصل بيني وبينها في غيابه؛ فقد ساعدني خالي كثيرًا ولا يستحق مني أن أتسبب له بمشكلة مع زوجته.

بعد شهر، وبمساعدة صديقتي في الحضانة، استطعت إيجاد شقة صغيرة قريبة هي الأخرى من مكان الحضانة وعلى قدر ميزانيتي، أخذت خالي لنراها وننجز إجراءات تسلّمها، كان خالي مازال مترددًا ولكن مع إصراري وإقناعي له بأنه ليس بعيدًا من

منزله ويستطيع أن يأتي لزيارتي كل يوم لو أراد ذلك.

انتقلت إلى شقتي.. ساعدني أخواتي وأمي على ترتيب قطع الأثاث المتواضعة وأغراض مريم وأغراضي.. كانت ليلتي الأولى وحدي في منزلي الجديد مخيفة.. شعرت بالوحشة وبقيت مستيقظة حتى بعدما نامت مريم بعد عناء.. في كل مرة أتخيل أنني أسمع أو أشعر بحركة ما خارج الغرفة أقوم من سريري وأبحث في أرجاء الشقة وأتأكد من أن الباب والنوافذ محكمة الإغلاق ثم أعود إلى غرفتي.. ولكن مع مرور الليالي، بدأت أعتاد المنزل، والحي الذي أسكن فيه، وحياتي المستقلة، أسوقها كيف أشاء بما يرضيني ويريح ابنتي.

حين كنت طفلة، لطالما لعبت وبنات الجيران لعبة «بيت بيوت»؛ وهي أن كلًا منا يكون لها بيتها الخاص الذي في واقع الأمر يكون أحد الأسرّة في الغرفة، ومعها دميتها التي تتخيل أنها ابنتها، وتبدأ اللعبة بدعوة لنا في بيت إحدانا لنلبس عباءات أمهاتنا ونأخذ أطفالنا ونذهب لزيارة صديقتنا.

وها أنا كبرت والسرير كبر وأصبح بيتًا والدمية أصبحت أجمل طفلة وقعت عليها عيناي.. شعرت كيف مرت أيامي سريعًا وكيف تقلبت حياتي في وقت سريع يمينًا ويسارًا، وأخذتني معها إلى أعالي جبالها ثم نزلتبي إلى سابع أرضها.. أما وبعدما اجتزت فترة التخبط تلك فقد شعرت بالاستقرار أخيرًا.

تطور عملي في الحضانة من مربية إلى إدارية في العامين

اللذين عملت فيهما.. واكتسبت خبرة عملية في التعامل مع الناس، وبعدما وفرت لنا مديرة الحضانة دورة تدريبية في استخدام جهاز الحاسوب اجتزتها بتفوق وحصلت فيها على شهادة، أتقنت العمل على الحاسوب والقيام بالحسابات والأعمال المكتبية.

بدأت بالبحث عن عمل آخر، عمل في مكان أرقى يضمن لي راتبًا أعلى لأتمكن من توفير حاجات مريم التي كانت تزداد كل يوم، ساعدتني والدة أحد الأطفال بأن أخبرتني عن إعلان في شركة اتصالات تبحث عن سكرتيرة أو مساعدة إدارية لديها خبرة في مجال الحاسوب.. تقدمت للوظيفة وبعدما ذهبت لإجراء مقابلة مع المدير الذي يفترض أنني سأعمل بإمرته، ومع أن المقابلة كانت تحتوي على أسئلة شخصية عن حياتي، وطريقة معيشتي وأوقات تفرغي أكثر منها عن خبرتي وعملي، أرسل المدير في طلبي بعد يومين؛ ما جعلني أفهم أنني قد حصلت على الوظيفة.

قدّمت استقالتي من الحضانة.. كان عمر مريم ثلاث سنوات؛ فكنت أتركها هناك لتبقى مع صديقاتها اللواتي تربت معهن منذ الصغر، كنت أطمئن إليها وهي برعاية زميلتي في العمل.

في عملي الجديد، كان جو العمل مختلفًا عما كان عليه في الحضانة؛ فهناك كنت أتعامل مع النساء فحسب وآباء الأطفال؛ مما جعل تعاملي مع الرجال محدودًا جدًّا وذلك ما كنت في حاجة إليه في مرحلتي تلك، أما اليوم فمعظم تعاملي مع رجال

من مختلف الجنسيات العربية والأجنبية.. كنت أشعر بالرهبة في بداية أيامي، أتوتر إن اقترب أحدهم مني أكثر من اللازم وأرتبك إن تبسم أحدهم في وجهي حتى وإن كان لا يعني أي شيء.

هوّن علي كثيرًا تعرفي إلى زينة، كانت تعمل في قسم الأرشيف، لكنها كانت تأتي كل يوم لتتناول وجبة الفطور أو تشرب قهوة الصباح معي بعدما عرفت أنني السكرتيرة الجديدة لجمال.. عرفت أن زينة من عائلة غنية جدًا وعندها من المال ما يكفيها لتعيش حياة كريمة بقية حياتها فهي ليست في حاجة إلى العمل، ولكن بعد وفاة أبيها قام عمّاها بإقناعها ببيع المنزل الذي كانت تعيش فيه هي وجدتها العجوز، وعرضا عليها أن تعيش مع أحدهما أو شراء منزل أصغر في العاصمة.. وبالطبع رفضت زينة أن تعيش مع أحد عمّيها وعائلته فهي بعيدة منهم ولا تعرفهم بسبب العلاقات المتوترة بينهم وبين أبيها، وبعد توزيع الميراث بينها وبينهم، اشترت منزلًا وعاشت مع جدتها في العاصمة تعتني بها.

كانت حياتها في مكان جديد ومدينة صاخبة غريبة عنها، لكنها بشخصيتها المنطلقة لم تجد صعوبة في التأقلم، وعلى الرغم من ذلك، فإن فراغًا كبيرًا كان في حياتها لم تعرف كيف تملؤه، فقد كانت وحيدة أبيها، لا إخوة ولا أخوات، لذلك قررت أن تعمل لتملأ وقتها وتتعرف إلى الناس وتتسلى في الوقت نفسه.

أخبرت زينة عن حياتي وحدي مع ابنتي؛ فأصبحت أزورها وتزورني فقويت علاقتنا كثيرًا في زمن قصير.. أخبرتها أيضًا عن يوسف وطلاقي من مبارك والد مريم، وقراري أن حياتي وحدي كانت أفضل قرار اتخذته:

«كيف تتركين عائلتك وتقررين أن تعيشي وحدك؟! كم أتمنى أن تكون لي عائلة».

«لم أتركهم، تركت حيّنا ومعارفنا فحسب، أما أهلي فأزورهم ولم أقطع علاقتي بهم».

كان عملي في الشركة يتطور بشكل سلس جدًا، كنت أرى اهتمام جمال بي اهتمامًا عمليًا بحتًا؛ فقد قام بترقيتي من موظفة استقبال إلى سكرتيرة قسم إلى سكرتيرته الشخصية حتى طلب مني طلبه الجريء جدًا، وبرفضي له قام بإرسالي للعمل في الأرشيف بدلًا من سكرتيرته الشخصية، ومن هنا بدأت معاناتي اليومية معه ومع سوء معاملته لي.

مضى على عملي في هذه الشركة ما يقرب العامين حين وصلت إليَّ رسالة يوسف التي قلبت نظام حياتي رأسًا على عقب.

لم أذهب إلى العمل في ذلك اليوم، ليس لأنني خائفة من مواجهة جمال بعد الذي حصل، ولكن اليوم دونًا عن كل الأيام، لم أكن أملك أعصابًا تكفي لتحمّل جمال ولا غيره، أريد أن أحصر تفكيري بلقاء

اليوم.. فتحت خزانتي لأرى ما عندي، ما يجب أن ألبس، كيف يجب أن أبدو.. جربت كثيرًا وكل شيء بدا لي غير ملائم.. كلما اقترب الموعد؛ الساعة الواحدة ظهرًا شعرت بالحرارة في كل جسدي، فأخفض درجة حرارة التكييف، لم أكن أشعر بأن أطرافي كانت على وشك التجمّد وأن الحرارة كانت في داخلي فحسب، نظرت إلى نفسي في المرآة: هل سيلحظ يوسف تغيري؛ أنني كبرت، نضجت؟! كيف يتخيلني؟! هل ما زال يراني بمريول المدرسة؟! بقيت أحدق في نفسي أسألها لكنها لا تجيبني، وضعت قليلًا من المكياج حتى لا أبدو أنني مهتمة أكثر من اللازم، كنت أريد إخفاء آثار السهر طوال الليل بالتفكير.

لما حان الوقت، أخذت حقيبتي ونظرت إلى نفسي نظرة أخيرة، أعطيتها نظرة تشجيعية لأستطيع فعل هذا.. وخرجت من المنزل.. كنت أشعر بالغثيان طوال الوقت في السيارة حتى شعرت بأنني على وشك التقيؤ وأنا أقود.. حين وصلت إلى المقهى نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الواحدة إلا خمس دقائق.. بقيت في السيارة.. هل أدخل الآن؟! هل أتراجع؟! ربما يجب علي أن أعود إلى المنزل؟! أنظر إلى نفسي في المرآة وأرى أنني بشعة، هل يريد رؤيتي بهذا المنظر؟! لِمَ لم أضع أحمر شفاه بلون أغمق؛ فأنا أبدو كالمريضة بهذا اللون الباهت، بحثت ولم أجد لديّ لونًا آخر، بدأت أتوتر، هل أعود وأحضر لونًا آخر؟! ولكنني سأتأخر، ربما من الأفضل أن أتأخر، يجب ألا أكون هناك قبلهم، ماذا سيقول عني؛ لا أستطيع

الانتظار لمقابلته؟! أصوات تصدر عن داخلي.. هل أنا جائعة؟! نعم يبدو كذلك فأنا لم آكل شيئًا منذ الصباح.. أقصد منذ البارحة.. وأنا في هذه الحالة الهستيرية، أسمع ضربات على نافذة السيارة كادت تسبب لي سكتة قلبية... إنه خالي!!:

«إلى متى تريدينا أن ننتظر وأنا أظن أن مكروهًا قد أصابك؟!».

«أنتما هنا منذ متى؟! لم أرَكما تدخلان..».

«نحن هنا منذ الساعة الثانية عشرة.. الحبيب لا يستطيع الانتظار».

آآه شعرت بالغثيان نفسه، ضربات قلبي بدأت بالتسارع، أمسكت صدري في محاولة فاشلة لتهدئتها:

«ليلى هيا.. أنا لا أملك اليوم بأكمله.. هيا أطفئي السيارة ولندخل..».

شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير.. تمالكت نفسي وخرجت من السيارة... ودخلت المقهى يدًا بيد مع خالي لأنني ظننت أنني أكاد أقع من التوتر.

رفعت عيني وتفقدت المقهى، وكما تمنيت، لم يكن هناك غيرنا وغير عجوزين يجلسان بالقرب من النافذة... اقتربنا من طاولة في آخر زاوية في المقهى.. يجلس فيها هو؛ يوسف، كان يتفقد هاتفه، وحين شعر باقترابنا رفع نظره باتجاهنا وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

هو يوسف، أمامي، بعرض كتفيه، بطول قامته، بلحيته السوداء،

عيناه لم تتغيرا واسعتان تحدهما رموشه الغليظة.

«وجدتها في السيارة مختبئة...»، قال خالي باستهتار وضحك الاثنان بينما شعرت بأن الدماء قد تدافعت من كل جسدي لتتراكم في وجهي وضغطت على يد خالي حتى كدت أكسرها..

«اااااه» وسحب يده مني.

«كيف حالك يا ليلى...؟!» يكلمني أنا، بصوته الدافئ نفسه، يملك بحة بصوته لم أسمع مثلها منذ أن اختفى من حياتي.

«بخير الحمد لله» أسرعت بالجلوس لأنني لم أعد أستطيع أن أقف أكثر، وجلس الاثنان خالي إلى جانبي ويوسف أمامه.

بعد لحظة صمت بقيت فيها أنظر إلى الطاولة وأدقق في كل تفاصيلها:

«اسمعا أنتما الاثنان، أنتما في حاجة إلى أن تتكلما وتقولا كل ما يجب أن يقال، ولن تفعلا ذلك إن بقيت هنا؛ فسأترككما لتقولا ما تريدان قوله وسأعود في ما بعد..».

أمسكت بدشداشة خالي حتى لا يرحل ويتركني، لم أدرِ ما أصابني، خجل أم خوف أم توتر!!.. لكنه وضع يده على يدي ووضعها على الطاولة:

«لا تخافي يا ليلى، لن يأكلك يوسف»، قال خالي بسخرية.

فتحت عيني أمامه.. لكنه لم يكترث لي وقام ورحل بعيدًا خارج المقهى.. بقيت أنظر إليه يرحل.. ثم عدت إلى متابعة النظر في

الطاولة:

«ماذا تريدين أن تشربي..؟!» سألني يوسف.

كنت أشعر بحرارة لكنني في حاجة إلى فنجان قهوة لتهدئة أعصابي.

«قهوة سوداء....».

أشار إلى النادل وأخبره بطلبي وطلب هو شايًا بالحليب.

«كنتِ تطلبين الشوكلاته بالحليب حين كنت آخذك من المدرسة ونذهب إلى المقهى الصغير الذي بجانب مدرستك.. هل تذكرين...؟!».

رفعت عيني إليه.. ثم أنزلتهما ثانية.. «نعم.... أذكر.. ولكن.. لم يعد شيء كما كان في ذلك الوقت».

«إلا حبي لكِ.. هو ما زال في قلبي لم يتغير..؟!»

فاجأني بدخوله في الحب والرومانسيات بهذه السرعة؛ فأنا ما زلت لا أستوعب وجوده أمامي، تحولت وجنتايَ من الوردي إلى الأحمر.. جاء النادل بطلباتنا.. وحين ارتشفت قهوتي شعرت بأنها تمنحني هدوءًا داخليًّا أراح أعصابي.. نظرت إليه وهو يفرغ أكياس السكر في داخل شايه:

«قرأت رسالتك..» قلت وأنا أخرج خاتمي من إصبعي وأدخله ثانية مرارًا وتكرارًا..

أخذ رشفة من الشاي وقال: «وما رأيك..؟!».

«خطك ما زال سيئًا كما كان...».

ضحك بصوت عالٍ حتى نظر إلينا العجوزان من على الطاولة التي إلى جانب النافذة.

«ما زلت تملكين القدرة على إضحاكي... الوحيدة».

بدأت يداي ترتجفان من شدة توتري حتى كاد الفنجان يقع من يدي، أخذت رشفة أخرى من القهوة... كانت جيدة على غير العادة أو حاجتي إليها هي ما كانت تجعلها لذيذة إلى هذه الدرجة.. وبعد لحظة صمت:

«أين وصلتُ في قصتي لك..؟!».

«إنها ليست قصة يا يوسف...».

أغمض عينيه وابتسم...

«نسيت كم جميل اسمي حين يخرج من بين شفتيك يا ليلى...».

«كف عن هذا، لن ينفعك ما تفعل.. أخبرني لِمَ أنا هنا...؟! أخبرني ما الذي لا تستطيع أن تخبرني إياه إلا حين تقابلني؟!».

غابت ابتسامته..

«اعذريني فأنا مرتبك؛ لم أكن أتخيل أنني سأصل معك إلى هذه الدرجة، أن تمنحيني هذه الفرصة، أن تجلسي أمامي مرة أخرى، طوال تلك الأعوام يا ليلى، على الرغم من بعدي منك، لم تغيبي عن بالي ومن خيالي، أغلقت قلبي عن كل نساء العالم، على الرغم من أنني قد علمت بأنك قد تزوجت آخر وأصبحت لرجل غيري، لم

أنسَك ولا لحظة.. انتظرت، ودعَوت الله أن يكتبك لي، أن تعودي، أو يُقَدر الأقدار فهو القادر على فعل كلّ شيء.. لم أصدق حين سمعت خبر طلاقك الذي جاءني متأخرًا جدًّا وإلا لكنتُ عُدت من قبل.. صدقيني..»

«أخبرني ما الذي حصل.. بعدما عدت لتعيش مع أبيك.. وبالمناسبة، أبوك إنسان لا يطاق.. متأسفة لقول ذلك.. ولكن بعدما أخبرتني عما فعل.. كيف استطاع أن يجرك إلى كل ذلك..؟!».

تنهد تنهيدة طويلة حتى ظننت أن لا نهاية لها:

«لم أكلم أبي منذ طلقتك يا ليلى».

فتحت فمي من الصدمة... «بسبب ما حصل؛ بسببي.. لِمَ تحملني هذا الذنب الكبير؟!».

«لا يا ليلى، لم تكوني السبب... كل ما حدث بسببه... قُلبت حياتي وضاع مستقبلي بسببه.. بوجودك أو بعدمه، فما فعله لا يخصك..».

«أخبرني ما حدث إذًا حين ذهبت معه إلى الشخص الذي يفترض أن يساعدك على سداد ديونك».

صدر صوت من بطني فأمسكت به حتى يسكت.

ابتسم أمامي يخفي رغبته في الضحك:

«هل أنت جائعة..؟!».

«لا لا تقلق..» كنت جائعة في الواقع.

«سأطلب لنفسي إن أردت فالقائمة أمامك.. اطلبي ما شئت»، مازال

يملك الطريقة نفسها ليظهر لي عدم اكتراثه لشيء ليستفزني فأفعل ما يريد.

حاولت إبقاء «برستيجي» أمامه.. لكن يدي لم تطع أمري ومدت نفسها لتسحب القائمة وتفتحها بسرعة، لمحته يسترق النظر إليَّ من فوق القائمة.

أشار إلى النادل.

«سأطلب ساندويش دجاج مع البطاطا المهروسة وعصير برتقال».

ثم نظر إلى النادل.

«سأطلب برجر لحم مع طبقتين من الجبن وصحن من البطاطا المقلية وسلطة السيزر مع مشروب غازي كبير..» وأغلقت القائمة وأعطيتها للنادل... نظرت إلى يوسف لأراه يحاول جاهدًا ألا يضحك.

«لا تنظر إلي هكذا... لم آكل شيئًا منذ البارحة» أخذت آخر رشفة من القهوة.

«هيا ابدأ بالكلام..».

«لِمَ أشعر بأنني في استجواب...؟!».

«لأنك كذلك... تفضل..» وأخيرًا بدأ بالكلام.

«حسنًا؛ أخبرتك أنه عرض علي أن نذهب إلى ذلك الصديق الغريب.. كنت أعرف أنه ليس لأبي أصدقاء، لكنني كنت في حالة يائسة وحين سمعته يقول إن لدى هذا الشخص الحل، تبعته من

دون تفكير.. كان بيته بعيدًا، في مكان ناءٍ، البيوت فيه مترامية هنا وهناك، أما بيته ففي وسط هذه القرية، أشبه بقصر ما، كبير جدًّا، مدخله وساحته الأمامية يكادان يكونان بمساحة حينا القديم.. بقيت أسأل أبي: «من أين تعرف هذا الشخص يا أبي؟! هل أنت متأكد..؟!» لأنني لم أكن لأصدق أن أبي من الممكن أن يعرف أشخاصًا بهذا الثراء.. دخلنا وقابلنا هذا الصديق المدعو «أبو محمد»، وهو رجل كبير في السن بعمر أبي، ولكنه يتصرف تصرفات الشبان المراهقين، متزوج من فتاة من جنسية أجنبية تصغره بعشرين سنة على الأقل، تلبس ملابس خليعة، استقبلتنا، لم أكن مرتاحًا لوجودنا، كان الرجل ينظر إلينا نظرة مترنّعة وكأننا جئنا لنطلب صدقة أو معونة منه.. ونحن بالفعل كنا نفعل ذلك.. كم أكره نفسي حين أتذكر ذلك الموقف التعس.

«وماذا حصل هناك..؟!».

«بعد السلامات والتراحيب التي لم تكن تبدو أنها تراحيب... فتح أبي موضوعي، وكان يبدو أن الرجل على دراية به من قبل، لم أتكلم وتركت المجال لأبي ليقول ما عنده ويطلب من الرجل ما جئنا لأجله، باختصار نريد المال.. لا تسأليني يا ليلى كيف قبلت أن أفعل ذلك.. ولكن وكما كتبت لك.. الدين يهين الرجل منا.. وقد أهانني على مستويات عدة..».

كدت ألمح دمعات محتجزة بين عينيه تطلب منه النزول لكنه لم يسمح لها، بقيت دموعه تلمع داخل عينيه... وأكمل كلامه.

«المهم ومن دون أن يطول الموضوع، وافق الرجل على إقراضي المال لأسدد دين المصرف.. وطبعًا كان هناك مقابل كبير».

«ما هو؟!!!».

«طلب مني أن أعمل لديه، هو يقول إنني سأكون مساعدًا وإنه في أمس الحاجة إلى شخص يثق به كما يقول؛ فهو تعب من الأجانب، ولكن في الحقيقة كانت الوظيفة هي «خادم شخصي»، أوصله وابنته إلى حيث يريدان، أقوم بقضاء حاجاتهما، توصيل طلباتهما الشخصية، التعامل مع عمال مزارعه، و.. و.. و..».

«ووافقت...؟!» لم أستطع إخفاء عجبي واستنكاري في الوقت نفسه.

«طبعًا رفضت وبقوة.. وعلى الرغم من كلام أبي ومحاولته تحسين الشكل العام للوظيفة الجديدة.. رفضت وتركت المكان وانتظرته في السيارة.. بقينا في تلك القرية يومين... حاول أبي فيها إقناعي بقبول عرض الرجل المغري بالنسبة إليه، وكيف سأستفيد من وراء عملي لديه والعلاقات التي سأبنيها من خلاله.. لم أفهم حماسه في البداية، لكنه اعترف لي في النهاية بأن الرجل سيوظفه ليدير أحد دكاكينه براتب جيد..».

قاطعنا النادل وأحضر الطعام... أفقدتني الرائحة صوابي وانقضضت على البرجر اللذيذ غير آبهة بأن الذي أمامي يوسف وأنني يجب أن أحافظ على رقتي ونعومتي أمامه... وبعد عشر دقائق بالضبط كنت قد مسحت ما في أطباقي وشربت آخر قطرات

من مشروبي الغازي، ولم ألاحظ أن يوسف لم يلمس إلا قليلًا من طعامه، بل ظل يراقبني طوال الوقت.. قمة الإحراج.

«الآن تستطيع أن تكمل.. ماذا فعلت؟! ألا يشبع أبوك من المال؟!».

وبابتسامة أكمل يوسف:

«طرحت عليه السؤال نفسه.. لكن إجابته دائمًا جاهزة، أريد لك الأفضل.. لم أفهم ذلك الإنسان إلا الآن.. كلما يقول إنه يريد لي الأفضل، كلما تدهور حالي أكثر.. المهم كان الموعد الذي حددناه للعرس قد اقترب، وكنت قد قطعت اتصالاتي بك لأنني لم أعرف ماذا أقول لك... أين أنا أتسول، أطلب المعونة من شخص غريب؟! كنت أشعر بأنني مقيد من كل اتجاه.. كم كنت غبيًا وطفلًا جبانًا ومنساقًا..».

سكت قليلًا ثم أكمل:

«ولكن كان يجب أن أعود، كنت أعرف أنني حين أعود سيكون أبوك في قمة غضبه وسيكون السؤال القائم: أين كنت؟! وماذا بشأن الزواج؟! وأنا لم أكن أملك جوابًا عن السؤالين.. ترددت كثيرًا.. بقيت الأيام تمر حتى استجمعت قواي وجئنا إلى منزلكم بعدما رجوت أبي ألا يقول أي شيء ويدعني أتكلم وحدي...».

ضحكتُ بسخرية.

«أعلم ماذا ستقولين، لم أقل شيئًا في ذلك اليوم، غضب أبيك ونظرَات الخذلان في عينيه قتلت كل الكلام في داخلي.. كل ما

رتبت قوله اختفى... طرح عليّ أسئلته وأجبته بأنني لا أستطيع الزواج الآن لأنني أحتاج بعض الوقت... احمر وجهه أكثر... لكنه بقي متمالكًا أعصابه، وسألني: ما الذي جد؛ فقد كنت مستعدًّا قبل أسابيع؟! لم أجبه، وظن أنني كنت أكذب عليه طوال الوقت وظننته فهم أن الأمر يخص أبي، وذلك ما زاد غضبه، سكوتي وعدم تبريري، وتعرفين ما حصل بعد ذلك حين طلب مني أن أطلّق... لم أكن أريد ذلك يا ليلى، صدقيني لم أكن أريد، كنت أعني ما أقول حين طلبت منك أن تأتي معي في لحظتها، كنت مستعدًّا لأن أكون معك أينما كان... لكن رفضك كسرني...».

انفجرت أمامه: «كيف تطلب مني ذلك الطلب في ذلك الموقف بالذات... تطلب مني أن أترك بيت أبي من دون أن أعلم إلى أين؟! وحتى وإن كنت زوجتك حينها، كيف ترضاها لي؟! ماذا عن تقاليدنا وعاداتنا؟! ماذا كنت تريد أن يقول الناس عني وأنا أهرب معك وكأنني ارتكبت جريمة، مع أن رفضي لك لم يسكتهم أيضًا؟!».

«فهمت.. فهمت موقفك صدقيني، ولكن بعد فوات الأوان، فهمت لِمَ رفضتِ، ولكن في ذلك الوقت وأمام أبي وأنتِ التي كنت أحاربه لأجلك، رفضتِني أمامه، كسرتِني أمامه، جعلتِ كلامه يكون حقيقة، بالنسبة إليه، كنتِ تريدينني حين كنت مقتدرًا وحين أصبحت فقيرًا رفضتِني».

«لم يكن ذلك المقصود على الإطلاق...» قاطعته.

«نعم أعرف، والله أعرف.. لكن ذلك ما كان بالنسبة إليه، وأمامه

خرجت من بيتكم فاقدًا كل أمل لي بإصلاح حالي، فقدتُ كل شيء بفقدانك، كنتِ أملي الوحيد.. رفضُكِ لي وأنا في تلك الحالة النفسية أعماني عن الحياة، كنت أشعر بأنك برفضك لي لم يعد لي أي حاجة إلى العمل، وقعت ورقة طلاقك وكأنني وقعت شهادة موتي..».

«كيف استطعت أن تفعلها..؟! كنت مازلت أحبك... لم تحاول يا يوسف، تخليت عني بسهولة»، ارتجف صوتي وأنا أتكلم بسبب العبارات التي مازلت أحاول جاهدة أن أكتمها.

مد يده وحاول أن يمسك بيدي فسحبتها سريعًا.

«متأسف.. لم أقصد..» قال مرتبكًا.

بقيت أنظر إلى يدي التي حميتها من لمسته الساحرة، لم أكن لأقوى عليها.

أكمل: «أعلم مقدار الألم الذي تسببت لك به، رأيت حياتنا معًا حياة جميلة سعيدة مستقرة، وفي ذلك الوقت، لم يكن معي إلا الشقاء وعدم الاستقرار.. كيف لي أن أفعل ذلك بك..؟!».

لم أرد وبدأ الألم في صدري وأسفل حلقي يزداد وأنا أحاول كتم دموعي.

«بعد ذلك اليوم التعس المظلم؛ يوم طلاقنا، كرهت الحياة وأنتِ لست فيها، لم أنم ثلاثة أيام متواصلة؛ أحاول التفكير كيف يمكن أن أعيدك إليَّ، لم يكن أمامي إلّا أبو محمد، ذهبت إليه من دون

أن أخبر أبي، وقلت له إنني موافق على طلبه، وبعد أن بدأت العمل معه قدمت استقالتي من المصرف ودفعت مستحقاتي كلها والمال الذي أقرضني إياه أبو محمد، وسددت ديني.. منحني غرفة في حديقة منزله لأنام فيها ومن هنا بدأت العمل معه..».

«كيف كان ذلك..؟!».

«بغض النظر عن أخلاقه التي لا أريد أن أتكلم عنها.. كان رجلًا قليل الكلام، لم نتكلم عن أي أمور شخصية، كنت أنفذ أوامره فحسب، أكره أن أقول ذلك، لكن كلام أبي كان صحيحًا، تعرفت إلى أناس كثر عرضوا علي أن أعمل لديهم في حال تركت عملي مع أبي محمد...».

«لِمَ لم تترك عملك معه إذًا».

«كنت نوعًا ما مرتاحًا في عملي الحالي بعيدًا من كل من أعرف، قطعت اتصالي بكل معارفي وأنهكت نفسي بالعمل ليلًا نهارًا.. نعم كان مرهقًا ويجب أن أكون متيقظًا وجاهزًا للطلب في أي وقت، لكنني كنت أكسب كثيرًا، أكثر من أي مكان آخر عُرض علي، ولم أكن أصرف شيئًا، وهذا ما أردت لأستطيع أن أعود إليك، فكنت أتحمل كل ما يحدث لي لأجلك.. وحين شعرت بأن أموري بدأت بالتحسّن، قررت أن أعود إلى أبيك وأخطبك مرة أخرى.. ولكن».

«لكنك لم تعد..».

«نعم؛ لأنه كان يوم عقد قرانك على رجل آخر..».

صمتنا نحن الاثنين.. نزلت دمعتي التي احتفظت بها كثيرًا فمسحتها سريعًا قبل أن يراها.. وبقيت أنظر في الطاولة.

«عدت أدراجي من دون أن أسمح لأحد برؤيتي..أعرف.. تأخرت، بقيت أوبخ نفسي لِمَ انتظرت شهرين لأعود، لِمَ ترددت، لو كنت عدت قبل ذلك لكنت سبقته، لو لو لو... لم تكن لها فائدة حينها... لكنني لم أتوقع... لم أتوقع أن تتزوجي بهذه السرعة...».

بقيت صامتة؛ لأنني لا أعرف كيف حصل ما حصل.. كنت كالمسحورة في تلك الفترة المظلمة من حياتي.. قلت له بعد صمت:

«كنت تريدني أن أنتظرك.. كيف أفعل ذلك وأنت لم تطلب مني ذلك.. لم تعطِني أي أمل، لم أرَك أو أسمع عنك حتى بعد الطلاق..؟! كيف أنتظرك؟! وماذا أنتظر؟!».

«لا ألومك يا ليلى، كان عندك كل الحق في أن تشقي طريقك وتبحثي عن سعادتك مع غيري..».

ابتسمت ابتسامة سخرية: «أي سعادة يا يوسف وكأنني رميت بنفسي بيدي في جهنم....؟!».

«أنا متأسف.. صدقيني أنا متأسف.. أرجوكِ، أعرف أنه بسببي، ألوم نفسي كل اللّوم على كل ما مررت به وأحمِّل نفسي المسؤولية بأكملها..».

«كانت فترة وانتهت... كل شيء كان مكتوبًا عند رب العالمين، لم يكن بيدك تغييره».

ابتسم وكأنني أعطيته الجواب الذي كان ينتظره.. وابتسمت له، شعرت بالنار التي كانت مشتعلة في داخلي وكأنها انطفأت.. وموج الأفكار والتساؤلات الذي أتعبني مدة طويلة وكأنه ركد وهدأ.

«بقي شيء واحد يجب أن أخبرك إياه...».

نظرت إليه بخوف.. ظننت أنه قال كل ما عنده.. هل هناك مزيد..؟! أخرج هاتفه النقال واتصل بأحدهم:

«تعالي..» قال كلمة واحدة وكأن الذي أو بالأصح التي يريدها أن تأتي تنتظر في الخارج.. بقيت أنظر إليه.

«من؟!.. ما الذي بقي لم تخبرني إياه؟!».

نظر يوسف إلى مدخل المقهى والتفتّ خلفي لأرى زينة..!!! زينة؟!!!! ماذا تفعل هنا؟!! لم يكلمها يوسف!! يوسف يعرف زينة؟! لا أفهم شيئًا.

«قبل أن تقفزي بعقلك إلى نهايات غير صحيحة انتظري حتى أشرح لك...» قالت زينة بخوف وارتباك وهي تقترب حتى قبل أن تجلس، أما أنا فالصدمة شكلت عقدة في لساني أفقدتني القدرة على الكلام!

«كيف الحال يا زينة؟!» قال يوسف: «تفضلي».

بقيت أنقل نظري بين الاثنين، ولم يتكلم أي منهما.

«إن لم يتكلم أحدكما فسأفقد عقلي.. زينة!! هل أنت ويوسف.....؟!».

«لاااااااااا ليلى... لا، الأمر ليس كذلك...».

«أرجوك تكلمي.. أهذا ما غيّرك مني..؟! تعرفين يوسف ولم تخبريني... منذ متى؟!! كل ذلك الوقت وأنت تعرفينه وتتركينني أتكلم معك وأفتح لك قلبي وأنت تعرفينه؟!!!».

«ليلى، يوسف كان يعمل مع أبي..».

نظرت إلى يوسف.... «أبو محمد؟!».

هز يوسف رأسه لي.. عدت بنظري إلى زينة.

«وماذا بعد؟! تكلمي يا زينة لا أريد أن أفكر وحدي أرجوك.. أو تكلم أنت يا يوسف».

«ليلى، بعدما عرفت أنك تزوجتِ بأيام، كنت مدمر النفسية، فاقد الإحساس بكل شيء حولي، حتى إنني بقيت من دون طعام فترة طويلة حتى سقطت مغشيًّا عليّ في أثناء عملي ونمت في المستشفى فترة حتى استعدت قوتي وعدت إلى العمل بعد إجازة طويلة..».

بقيت أستمع إلى ما يقول، لكنني لم أفهم ما علاقة زينة بالموضوع.. بقيت أعيد قصص زينة عن والدها في رأسي.. حتى بعدما توفي، هي لا تشعر بأنها تستطيع مسامحته لكل ما فعله بها.. كان سكوت زينة غريبًا ومريبًا.. بدأت أهيئ نفسي لصدمة أخرى.

أكمل يوسف:

«كنت آخذ زينة يوميًّا إلى جامعتها ومن دون أي حوار يدور بيننا.. لا صباحًا ولا مساء.. أظنها حتى لم تعرف اسمي فترة طويلة، كانت

تظنني أحد العمال وكانت تناديني «هاي..» كما تنادي أي عامل أو حارس، أو في بعض الأحيان بـ«لو سمحت».

ضحكت زينة، لكنني لم أجد شيئًا مضحكًا.

«سألتني في يوم بعدما عدت من الإجازة عن صحتي وكيف كانت إجازتي، استغربت سؤالها في بادئ الأمر، وحين أجبتها بأنني بخير.. بدأت تتكلم معي عن كل ما يمكن أن يخطر في بالك..».

نظرت إلى زينة... أعرف بالضبط ما يقصد يوسف، أعرف كيف هي زينة وكيف تظن أن كل من حولها يستحق الثقة وأنها تستطيع أن تقول له أي شيء.

«بدأت تطلب مني أن آتي لآخذها إلى أماكن أخرى كالمقاهي والمطاعم البعيدة، في الوقت الذي تعودت أن تكون فيه في الجامعة، لم أسأل لماذا أو أين تذهب ومع من...».

وضعت زينة يدها على وجهها خجلًا.. ففهمت أنها كانت على علاقة بأحدهم.

«وفي يوم، رأيت رجلًا غريبًا يتشاجر معها عند باب المنزل، يصرخ ويشير بيده إلى وجهها وكأنه يوبخها أو يهددها...».

«من هو..؟!» سألت بفضول.

تكلمت زينة وهي تنظر إلى الطاولة... «كان اسمه خالد، كنت على علاقة به، وقد وعدني بالزواج بعدما نتخرج، أحببته ووثقت به، كنا نخرج سويًّا في الأماكن العامة، ظننته أحبني كما أحببته، كنت أراه

وسيلة خروجي من منزل أبي إلى حياة أفضل.. ولكن.. كم كنت غبية»، بدأت زينة بالبكاء، نظرت إلى يوسف الذي لم أعرف دخله بالقصة حتى الآن.

«كان الرجل يملك صورًا لزينة وجاء يهددها إن لم تفعل ما يريد سينشر تلك الصور ويفضح أمر علاقتها..».

«هل فعل؟! ماذا حصل..؟!».

«اقتربت من الرجل وطلبت منه الابتعاد عن المنزل وأمرت زينة بالدخول وإغلاق الباب خشية أن يسمع والدها بالأمر.. لكن الرجل أبى أن يتحرك وبدأ بالصراخ بكلام يخدش الحياء، فسمع «أبو محمد» وخرج إلينا وبدأ شجار كبير بين الاثنين، هددته بأن أطلب الشرطة إن لم يعطِني ما عنده من صور ويرحل بعيدًا.. لكنه رفض وبدأ يسألني بأي صفة أتكلم معه فوجدت نفسي أقول له إنني خطيبها لا أدري لماذا.. كنت أريده أن يخرس وانتهى بنا الأمر في قسم الشرطة حتى اعترف ذاك الخالد بأنه قام بتهديد زينة وتعريض سمعتها للخطر..».

كنت في قمة الصدمة.. من الموقف الذي حصل لزينة والذي لا أعرف عنه شيئًا، مما فعل يوسف وعن شهامته معها، من ادعائه أنه خطيبها ليستر عليها.

نظرت إلى زينة: «هل انتهى الأمر بسلام..؟!» فسالت الدموع من عينيها مجددًا.

أكمل يوسف: «نعم أمر خالد، لكن الصدمة كانت قوية على أبي محمد ولم يحتملها قلبه الضعيف.. دخل المستشفى شهرين ثم انتقل إلى رحمة الله».

«توفي أبي بسببي..» قالت زينة وهي تمسح عينيها.

«لم أعرف إن سامحني أم لا... كنت غاضبة منه طوال الوقت وحين كان على فراش الموت كنت غاضبة من نفسي فلم أذهب إليه، لم أره ولم أخبره بأنني سامحته على كل أفعاله...»، وانهارت بالبكاء فأخذتها بين يديّ واحتضنتها بقوة.

وبعدما هدأت سألتها:

«متى عرفتِ..؟!».

«عرفت ماذا...؟!».

«أن يوسف هو من كنت أكلمك عنه...!!».

«حين رأيت اسمه على شاشة حاسوبك.. كان صدمة، تخبطت الأفكار في داخلي، لم أصدق كيف أن الدنيا صغيرة، ومن الممكن أن تجمعنا بإنسان كنا قد نسينا وجوده في حياتنا... كنت أريد أن أخبرك، أقول لك: لا تترددي؛ يوسف إنسان يجب ألا تترددي في أن تكوني معه، شهم ومحترم ويمكن الاعتماد عليه في أي شيء، ولكن لم أعرف كيف.... اتصلت به متأملة أن يكون رقمه لا يزال نفسه.. وشجعته على أن يستمر في المحاولة معك، يبعث إليك بالورود، قلت له أن يشرح لك كل شيء.. ظننته فعل ذلك في رسالته، ولكن

حين جئتِ إلى بيتي عرفت أنك مازلتِ لا تعرفين..».

«لهذا كنت تتهربين مني؟!»

هزّت رأسها: «كنت خجلة من نفسي ومما فعلت، يوسف هو الوحيد الذي يعرف بذلك الأمر، وصدمتي أن يكون هو الشخص نفسه الذي تحبينه.. أن تكون الدنيا صغيرة إلى هذه الدرجة.. لم أستطع النظر في عينيكِ، لم أستطع مواجهتك بالأمر، كنت خائفة أن أخسرك أو أن تسيئي فهمي».

كان يوسف ينصت إلينا.. رنّ هاتفها فاستأذنت بعيدًا من الطاولة.

«هل كان هذا كل ما حدث..؟!» سألت يوسف..

تنهّد فعرفتُ أن سؤالي كان في محلِّه..

«بعدَما انتهت المشكلة بينها وبين ذلك الخالد، كانت ممتنة لي ولِما فعلتُه لها.. شَعرتُ أنها بدأت تتقرب إليّ أكثر من مجرد أخ أو صديق.. كنت أتوقّع أن فتاة نشأت نشأتها تبحث دائمًا عن الأمان والاستقرار، عن رجل تحتمي تحت جناحه.. وأعتقد أن موقفي معها أعطاها الأمان من ناحيتي، حاولت التقرب ورمي التلميحات ذاتها التي ترميها أي فتاة تريد التودد إلى رجل ما.. لم أكن أريد أن أجرحها، شعوري بالمسؤولية تجاهها حال دون صدّي لها..».

ظلّ ينظر إلى عيني وهو يرى أنني بدأت أشعر بعدم الارتياح لما هو قادم..

«أكمل يا يوسف... ماذا حصل».

«لم يحصل أي شيء يا ليلى صدقيني..».

أخرجتُ تنهيدة عميقة.. وانفجرت «سامحك الله يا أخي.. لقد جفّفت الدماء داخل عروقي..».

ابتسم ابتسامة خبث وقال.. « تغارين عليّ؟؟؟».

فاجئني.. كلا لا أغار عليه.. لِمَ الغيرة..؟ ولكن بقيت أسأل نفسي لمَ خِفت أن يكون قد حصل شيء بينه وبين زينة..؟ لا أدري..

جاوبته بثقة.. «لا أغار، لكنها من أعز صديقاتي، فإن حصل شيء بينكما فسأخسرها.. أو.. لا أدري..».

«أو تخسرينني.. أنا آسف أنني أخفتك ليلى.. لم أكن أقصد.. لكنني أريد أن أطمئنك بأنكِ كنتِ كل ما أُفكر فيه، حتى وبعد ما علمتُ أنك تزوجت غيري، كان لديَّ إحساس قوي أنني أستطيع استعادتك يومًا ما.. لم أيأس ولا لحظة.. لم أنسك صدقيني، على الرغم من المسافات التي كانت تفصلني عنكِ، على الرغم من الإغراءات التي حولي، لم يكن في قلبي ولا عقلي متسع لأحد سواكِ..».

كم كان كلامه يهاجم قلبي كلمة بعد كلمة، جملة بعد جملة.. كنت محرجة.. سعيدة.. متوترة.. و.. ضاقت بي الأحاسيس التي كنت أشعر بها وهو يتكلّمُ عنّي.. أنا.. بهذه الطريقة..

«شرحت لزينة أنني مرتبط بإحداهن، وأن عملي مع والدها كان لتكوين نفسي حتى أعود إليها ونتزوج.. وأنها بالنسبة إلي مثل أختي».

«ماذا قالت؟».

«تفهمت الأمر أكثر مما توقعت.. بقينا صديقين، حسبتها مثل أختي، كانت تحتاج إلى كثير من التوجيه، كان أبوها منحرفًا يا ليلى؛ فتحاول أن تخرج من المنزل لتهرب... لم يكن لها أحد، كنت أشفق عليها كثيرًا... وبعدما توفي والدها بدأتُ بالعمل مع أحد معارفي فكونت معه علاقة طيبة.. وانتقلت هي لتعيش مع جدتها، شجعتها على أن تجد عملًا لتشغل به وقتها، وفعلت كما نصحتها... ومن يومها انقطع اتصالي بها.. حتى اتصلت بي ذات يوم لتخبرني أنها تعرفك وأنكما صديقتان..».

عادت زينة:

«يجب أن أذهب، جدتي تحتاجني في المنزل، أنا متأسفة يا ليلى.. هل سامحتِني..؟!».

«أنت لم تفعلي شيئًا يا غبية، أسامحك على ماذا؟!».

«لأنني لم أخبرك بأنني أعرفه.. لم أقصد شيئًا».

«لا أستطيع أن أغضب منك، تعرفين ذلك..».

«ليلى أختي يا يوسف، أقسم لك إن جرحتها مرة أخرى فحسابك سيكون معي أنا شخصيًّا هذه المرة.. صدقني».

«لا تقلقي؛ تعلمت درسًا قاسيًا..».

ونظر إليَّ ينتظر أن أقول إنني سامحته! هل سامحته بالفعل؟!

رحلت زينة وبقيت معه وحده من جديد.

«أعرف أن كل ما سمعتِه كان كثيرًا لتستوعبيه.. لكنني أريد أن أكلم والدك.. أريد أن أتزوجك يا ليلى..».

«و مريم..؟».

«مريم ابنتي، رغم أنفك وأنف جميع من حولنا.. سأربيها وأعوضها عن الأيام التي لم أكن إلى جانبها.. هي ابنتي وإن لم تكن من صلبي، هي ابنتك، قطعة منك.. وهذا يكفيني لتكون ابنتي..».

أعطاني كلامه سعادة أجبرتني على الابتسام.. ثم بقينا صامتَين لوهلة، كلٌّ مِنا سرح بفكره إلى آفاق بعيدة.. هل يمكن أن يحصل؟ وأغنية «إنت عمري» لأم كلثوم تصدح في أرجاء المقهى طوال فترة جلوسنا.. وفي خاطري أريد أن أقول ليوسف «رجعوني عينيك لأيامي إلي راحوا.. علموني أندم على الماضي وجراحه.. إللي شفته.. قبل ما تشوفك عينيّ.. عمري ضاااايع يحسبوه إزّاي.. علّي اااا... إنت عمري..».

«فيمَ تفكرين...؟».

لم أجاوبه.. اكتفيت بالنظر إليه.. نظرت إلى عينيه ورأيتهما تشعان أملًا ورجاء..

«ليلى.. أعدك أن كل شيء سيكون على ما يرام.. حياتنا ستكون وكأن السنين التي مضت لم تكن موجودة.. سأفعل ما في وسعي لأعوضك أنت ومريم.. أعدك».

عاد خالي.. وابتسمنا نحن الاثنين حين رأيناه.

«أنا أرى ابتسامات..!! هل أقول: مبارك...؟!!».

«خاالي، توقف..» أحمر وجهي خجلًا.

«إن شاء الله خير..» قال يوسف بكل أمل وتفاؤل.

اتصلت بي أمي بعد ذلك اللقاء بيومين تطلب مني القدوم إلى المنزل فأبي يريد أن يكلمني بموضوع مهم.. فهمت على الفور أن يوسف فاتح أبي في موضوعنا، لم أتوقع أن يفعل ذلك بهذه السرعة فأنا مازلت في طور الصدمة ولم أفق منها بعد.

أخذت مريم وذهبت إلى بيت أبي، وهناك وجدتهم ينتظرونني في صالة الجلوس: أمي وأبي وخالي وأخي.. كانت الجلسة ذاتها التي أخبروني فيها أن يوسف تقدم لخطبتي قبل ستة أعوام، شعرت وكأن الزمان عاد بنا إلى ذلك اليوم، وكأن الأعوام الستة التي مرت مجرد صفحات في كتاب حياتي وطويت أو مُزّقت ولم تعد موجودة، لكنني لست الفتاة نفسها، غيرتني الحياة كثيرًا، وصنعت مني العوائق التي مررت بها إنسانة أخرى أقوى وأنضج.

أخبرني أبي أن يوسف كان هنا البارحة وأنه تقدم إليه رسميًّا يطلب يدي بعدما قدّم إليه مختلف أنواع الاعتذارات وشرح له ما حدث في السابق والظروف الصعبة التي مرّ بها.. أخبره عن الضغط الذي تعرض له من قِبل والده وأنه تعلم كثيرًا مما حصل له.. أخبره أيضًا عن وضعه الحالي وأنه في أحسن حال، يعمل في شركة مرموقة يدير أعمالها ومستعد لأن يقدم كل ما نطلبه منه.

«ما قولك يا ابنتي.. القرار قرارك.. خذي وقتك بالتفكير؟!».

«أخبرني ما رأيك أنت يا أبي؟!».

«نحن نعرف يوسف جيدًا، هو ليس بالغريب وأنت تعرفين رأيي فيه من قبل، رأيت فيه تغييرًا كبيرًا، وأظنه ندم أشد الندم على ما فعل سابقًا.. ولكن وكما قلت لك القرار قرارك... لقد أخبرني أنه سيأتي اليوم ليكلمك أمامي.. اسمعيه وقرري».

وكأن أبي بكلامه وموافقته مسح على آخر جرح كان باقيًا لم يلتئم، هو جرح يوسف لعائلتي وأبي بالذات، وبذلك هدأت جميع الآلام في داخلي والتأمت، واهتزّ قلبي فرحًا وأملًا بحبٍ جديد..

وبعد ساعتين جاء يوسف إلى بيتنا.. وجلس إلى جانب أبي ينتظر دخولي.. أدخلت معي مريم غرفة الجلوس.. ابتسم ابتسامة عريضة حين رآها وكأنه علم أنني سأدخلها معي.. مريم كانت طفلة خجولة جدًّا فبقيت مختبئة خلف عباءتي تسترق النظر إلى ذلك الغريب الذي لم يتوقف عن الابتسام لها.

«تعالي يا مريم..» بابتسامة عريضة قال يوسف.

نظرت مريم إليّ وكأنها تطلب الموافقة مني: «اذهبي إنه صديق ماما... هو من أحضر لك إيميلي قولي له شكرًا».

اقتربت مريم على استحياء من يوسف، فرفعها لتجلس في حضنه.. وقبّلها على خدها.

«هل أعجبتك الدمية..؟!».

هزّت رأسها: «اسمها إيميلي».

قبلها ثانية وأنا أراقبه حتى شعرت بأن تلك القبل على خدي أنا.

«اهاا!.. أظن أن إيميلي محظوظة بأنكِ أمها.. اعتني بها جيدًا.. أخبريني هل تذهبين إلى المدرسة».

هزّت رأسها: «نعم».

مسح على شعرها ليرفع خصلات الشعر المنسدلة على عينيها.. نظر إليها وقال: «تشبهين ماما كثيرًا هل تعرفين..؟!».

خجلت مريم وغطّت وجهها بيديها.. أخذ يوسف يديها وقبلهما ثم ضمها إلى صدره.. أغمضت عيني حتى شعرت أن دفء حضنه قد وصل إلي. أبي أيضًا كان منسجمًا ينظر إلى مشهد يوسف أمامه وبين أحضانه مريم، كان المشهد لا يقل حنانًا ومصداقية عن مشهد أي أبٍ عاد لابنته بعد طول غياب.. يضمها ويقبلها ليعوضها عن كل الوقت الذي مضى وهو بعيد منها..

«اسمعي يا ابنتي.. يوسف يطلب أن يتزوجك، وأن يربي مريم كابنته، أنا وهو قد تحادثنا كثيرًا، أما الآن فأريد أن أسمع رأيك أمامه.. هل أنت موافقة؟!».

نظر يوسف إليّ ينتظر ردي.. أما أنا فبقيت أنظر إليه ومريم بين أحضانه ثم ابتسمت.. وصل ردي إلى أبي فابتسم هو الآخر.

مريم

«الخريجة مريم مبارك عزيز».

ضربات قلبي تتسارع حتى شعرت بأنني أسمع الضربات مختلطة مع تصفيق الجمهور.. هذا هو اسمي، يجب علي أن أمشي الآن على المسرح لأتسلم شهادتي من مدير الجامعة.. أشعر بأن قدميّ تحولتا سائلًا هلاميًّا ولم تعودا قادرتين على حملي... أحاول أن أتمالك نفسي حتى أصل إلى حيث المدير يقف مبتسمًا ممسكًا بالشهادة ينتظرني لأصل إليه، بدا لي وكأنه يقف بعيدًا جدًّا، وكأنه سراب كلما اقتربت منه ابتعد، حتى وصلت إليه وتسلمت شهادتي ونظرت إلى الجمهور وابتسمت فانهالت علينا أضواء الكاميرات من كل جانب لالتقاط الصورة التذكارية للخرّيج أو الخرّيجة لحظة تسلُّم الشهادة.

مررت بعيني بين الجمهور حتى أجد عائلتي، وفي اللحظة التي وقعت عيناي على أمي شعرت وكأن الزمن توقف وأصوات تصفيق الجمهور قد تلاشت من أذني، وكأن الكاميرا التي تلتقط الصور التقطت صورة عائلتي وهم جميعًا واقفون يصفقون لي تملأ وجوههم ابتسامة تخالطها دموع الفرحة والفخر بي.

أرى أمي وهي تصفق مبتسمة، لم أكن لأكون ما أنا الآن لولا وجودها في حياتي، لولا التضحية التي بذلتها لأجلي لتضمن لي حياة أفضل، لما استطعت الوصول إلى هذا اليوم، فلو قضيت عمري بأكمله أخدمها فلن أرد ولو حتى جزءًا مما قدمته إليّ، كانت أمي

تقول لي دائمًا إن ما حَصَل معها طوال حياتها، وجميع ما مرَّت بِهِ من عقبات رُبَّما كسرتها في لحظتِها، لكنَّها ومع مرور الوقت صَنعت منها إنسانة أقوى وأنضج.. أعطتها طريقة جديدة لِتنظر إلى الحياة.. تُفكر بِعقلِها أولاً قَبل عَواطِفها، أصبح لَديها إرادة قوية تطمح دومًا لمستقبلٍ أفضل ولا تقِف مكتوفة الأيدي لمجرد أنها لم تحصل على ما تريد.. وقد زرعت فيَّ وفي إخوتي ذلك من دون أن تشعُر أو تتعمّد.. ثقتها بنفسها تغلغلت فينا كمجرى الدم فأصبحنا لا نطمحُ إلى شيء إلا حققناه.. حبها للحياة، لنا، لأبي ولعائلتها أنار دربنا وجعلنا مقبلين ومتفائلين لا شيء يكبح إقدامنا ما دمنا نحن معًا.. نصفق لبعضنا عندما يحقق أحدنا إنجازًا، ونتكىء على أكتاف بعضنا عندما نقع.. لو لم تمر أمي بما مرت به، لما كانت هي هي.. ولم أكن لأكون أنا هي أنا.. فيا ليتني أستطيع تقديم سني عمري لها فيطول عمرها ولا أحرم منها ما حييت.

إلى جانبها يقف أبي؛ يوسف، الذي حتى وإن لم يُنادَى اسمه في الميكرفون خلف اسمي؛ فهو أبي رغم أنفهم جميعًا.. هو أبي الذي لم أعرف أبًا سواه، هو الذي أخذني تحت جناحه ابنة بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى، وأحبني أكثر مما لو كنت من صُلبه وأكثر، وهو الوحيد الذي أستطيع أن أرتمي في حضنه كلما ضاقت بي الدنيا وأختبئ بين أضلاعه فأعود طفلة صغيرة.. لا أدري لو لم يعد يوسف كيف كانت ستكون حياتنا، كيف كنت وأمي سنعيش من دون وجود هذا الرجل، من دون محبته لنا، من دون شعورنا بالأمان وهو

معنا، لا أستطيع حتى تخيل ذلك.. استقالت أمي من عملها في اليوم الذي تزوجت فيه أبي، وأكملت دراستها الجامعية، وبعدها افتتحت هي وصديقتها زينة حضانة أطفال أسمتها «حضانة مريم»، وهما تعملان معًا حتى اليوم ولم تفترقا.

تقف جدتي إلى جانب أبي، هي أمي الثانية، عماد عائلتنا، والحضن الكبير الذي يسع كل من يحتاج إليه، هي مصدر التضحية في المنزل فكلنا تعلمنا منها أن نفكر في الآخر قبل أنفسنا.

أرى خالتي الدكتورة سميرة التي تخصصت في طب الأطفال، تزوجت وأنجبت بدرًا، ماذا لو كانت تزوجت ذاك الرجل الذي تقدم إليها قبل أعوام كثيرة، لما كانت أكملت دراستها وتزوجت إنسانًا في عمرها تعيش معه بسعادة وتفاهم.

ومع الكاميرا تقف خالتي دانة؛ أختي التي لم تنجبها أمي، أقرب إنسانة إليّ في هذه الدنيا، صديقتي المقربة، تصغرني بسنة واحدة فأشعر بأننا صديقتان أكثر من الإخوة.

وإلى جانب أمي، تقف أخواتي الصغيرات: علياء، هيفاء، ولمياء، يلوّحن لي بأيديهن ويقفزن من الفرحة، فخورات بأختهن الكبرى، ربما اختلفت أسماؤنا في الأوراق الرسمية، لكننا عشنا وتربينا أخوات من الأم والأب نفسه لا تشعر أي منا بأي فرق صغيرًا كان أو كبيرًا.

تلك هي عائلتي، لا أقول إنها العائلة المثالية، لكنها بالنسبة إليّ أكثر

من ذلك بكثير؛ لأنها، وعلى الرغم مما مرت به من ظروف فرّقتها في فترة من الفترات، فإنها استطاعت أن تلم شملها بطريقة أو بأخرى، بقيت قلوبنا متصلة بعضها ببعض، فحزننا واحد وفرحنا واحد وكلٌّ فردٍ منّا يعمل ما في وسعه لتظل العائلة في أعلى قائمة أولوياته....

النهاية

ماذا لو؟

تمر الأيام على وتيرة واحدة، الوقت هنا يفرض وجوده علينا، فطعامنا، وشرابنا، وأنفاسنا بأمره. غريبة هذه الحياة، تأتي بسهولة وسلاسة؛ فننخرط في مشاغلها، وأحداثها، وأيامها، غير مدركين أن هناك أيامًا ستغير مجرى حياتنا. تارة نشعر بسعادة لا تفارقنا، وكل ما حولنا يكون لصالحنا، وتارة أخرى، تتقلب الأمور ونشعر وكأن الصبح لن يأتي ليبدد أحزاننا، وينتشلنا من الحزن المحكم.

سارة العبادي

ISBN978-0-9975518-4-6
978-0-9975518-4-6